الفصل الأول

الإمام الفندلاوي

صاحب «تهذيب المسالك . . . »

المبحث الأول
عصر الإمام الفندلاوي

تمهيد:

عاش الإمام الشهيد حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي رحمه اللّه تعالى، فيما بين سنتي ستين وأربعمائة، وثلاث وأربعين وخمسمائة هجرية على الأرجح؛ غير أن ظهوره، واشتهاره، ومعرفة بعض تفاصيل حياته، إنما كان بعد الخمسمائة، وفي الدولة البورية بالشام على وجه التحديد، بعد انتقاله من المغرب إليها، واستقراره بها. ولهذا فإن حديثنا عن عصره سيكون أكثر تركيزًا على هذه الفترة الظاهرة من حياته، وعلى بيان الحالة السياسية، والثقافية فقط، وفي حدود ما يلزم لفهم شخصية إمامنا، وتفسير اختياراته، وتوجهاته ومواقفه الفكرية، والإصلاحية، والجهادية.

المطلب الأول: الحالة السياسية:

وضع الخلافة العباسية:

لقد عاصر الإمام الفندلاوي رحمه اللّه من خلفاء بني العباس خمسة، هم:

1 ـ أبو القاسم عبد اللّه المقتدي بأمر اللّه الذي تولى الخلافة ما بين 467 و487هـ.

2 ـ أبو العباس أحمد المستظهر باللّه، الذي تولى الخلافة ما بين 487 و512هـ.

3 ـ أبو المنصور الفضل المسترشد باللّه، الذي تولى الخلافة ما بين 512 و529هـ.

4 ـ أبو العباس المنصور الراشد باللّه، الذي تولى الخلافة ما بين 529 و530هـ.

5 ـ أبو عبد اللّه محمد المقتفي بأمر اللّه، الذي تولى الخلافة ما بين 530 و555هـ.

ولم يكن لهؤلاء الخلفاء جميعًا تقريبًا ـ مع سلاطينهم السلاجقة ـ من أمر

الحكم شيء يذكر، إلا ما كان من الخطبة لهم، وضرب السكة باسمهم[1]، وتخصيص بعض الإقطاعات والموارد المالية لهم، وكل من حاول منهم أن يمد نفوذه إلى ما وراء ذلك، أو بدا منه ما يشعر بذلك، فإن الثمن قد يكون حياته أو ملكه.

فالخليفة المقتدي بأمر اللّه، ما إن بدا منه ما يدل على رغبته في التدخل في شؤون الحكم، حتى أوجس السلطان ملكشاه السلجوقي خيفة منه، وقال له في حسم: «لا بد أن تترك بغداد، وتذهب إلى أي بلد شئت، فانزعج الخليفة، وقال: أمهلني شهرًا. قال: ولا ساعة واحدة»[2]، ولولا تدخل وزير السلطان مستشفعًا له بإمهاله عشرة أيام ما قبل.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل طلب منه أن يخلع ولي عهده، وأكبر أبنائه المستظهر باللّه، وأن يعهد لابنه الآخر الأصغر جعفر ولد أخته بدله، وكاد أن يتم له ما أراد، لولا أن اللّه عجل بموته قبل انتهاء المدة التي حددها لتنفيذ ما طلب[3].

والخليفة المسترشد باللّه، أسره السلطان مسعود، وحبسه في جملة من أعيان دولته بهمدان، ثم نقله إلى مراغة؛ حيث اشترط عليه ليعيده إلى دار خلافته، ألا يجمع العساكر، وألا يخرج من داره، فأجابه لذلك؛ غير أن مجموعة من الباطنية ـ قيل إن سنجر عم مسعود قد دسهم في الجيش ـ وثبوا عليه في خيمته، فقتلوه قبل عودته إلى بغداد، وذلك سنة 529هـ[4].

وابنه أبو العباس المنصور الراشد باللّه، لما خرج من بغداد في جيش له، ادعى السلطان مسعود عليه ـ أمام أهل الحل والعقد من الوزراء، والعلماء، والقضاة ـ أنه كتب له بخط يده في شروط عقد توليته: «أني متى جندت أو خرجت، أو لقيت أحدًا من أصحاب السلطان بالسيف، فقد خلعت نفسي من الأمر»[5]، فأفتي بخلعه، وولى السلطان عمه أبا عبد اللّه محمد المقتفي بأمر اللّه، وذلك سنة 529هـ

---

(1) ن: تاريخ الإسلام 4 / 23.
(2) ن: تاريخ الخلفاء 181 - 182 للإمام السيوطي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد. مطبعة المدني. ط3، القاهرة 1964.
(3) ن: وفيات الأعيان لابن خلكان 4 / 375.
(4) ن: الكامل 8 / 348.
(5) ن: الكامل 8 / 354.

أو 530هـ، على شروط ومواثيق قررها له، وأشهد بها عليه[1].

وقد أدى هذا الوضع المضطرب إلى انعدام الثقة بين الخلفاء والسلاطين، وإلى تدبير المؤامرات والدسائس المستمرة داخل أركان الهيئة الحاكمة، وبذلك انفتح مجال واسع أمام كل صائد في الماء العكر، ليحدث من صنوف الفوضى، وزعزعة الأمن ما شاء.

وضع الدولة السلجوقية:

ولم يكن حال هذه الدولة ـ على استبدادها ـ في الفترة المدروسة بأحسن من حال الخلافة العباسية المغلوبة على أمرها. ذلك أنه بمجرد موت سلطانها العظيم ملكشاه بن ألب أرسلان سنة 485هـ، الذي كانت دولته تمتد من حدود الصين شرقًا، إلى جورجيا، والبلاد المجاورة للقسطنطينية غربًا، إضافة إلى بلاد العرب، وبيت المقدس في فلسطين[2]. أقول بمجرد موت هذا الملك، شب صراع مرير طويل على السلطة، استمر إلى سنة 552هـ بين أخيه تتش، وأبنائه من جهة. ثم بين أبنائه فيما بينهم، وبينهم وبين أبناء عمومتهم سلاجقة الروم بآسيا الصغرى من جهة ثانية، وكان من نتائج هذا الصراع انتثار عقد دولة السلاجقة المترامية الأطراف المهيبة الجانب، وتشتيت شملها، وتمزيق أوصالها، وانقسامها إلى ثلاث دويلات مضطربة متعادية ينهش أعداؤها أطرافها من حين لحين. هي:

دولة سلاجقة الشام بدمشق التي أسسها تتش بن ألب أرسلان سنة 485هـ، وانتهت بموت ابنه دقاق سنة 497هـ.

ودولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، أبناء سليمان بن قتلمش.

ودولة سلاجقة العراق وفارس، أبناء وأحفاد ملكشاه، الذين كانت الحرب بينهم سجالاً[3].

وقد أدى ضعف الخلافة العباسية وانعزالها، وتمزق الدولة السلجوقية، وانقسامها، وانشغالها بالحروب المدمرة الدائرة بين أفرادها، إلى أمور في غاية الأهمية، والخطورة بالنسبة لوحدة الأمة ومصيرها، منها:

---

(1) ن: الكامل 8 / 354 - 355، وسير النبلاء 20 / 399.

(2) ن: الكامل 8 / 163، وجهاد المسلمين في الحروب الصليبية 54.

(3) ن: تاريخ الإسلام 4 / 37 - 60، 87 - 88.

أولاً: احتلال الكثير من القلاع الحصينة داخل محيط دولة الخلافة من قبل كبار دعاة الباطنية الإسماعيلية النزارية، وبث جماعاتهم السرية التشكيكية، وفرقهم الفداوية الانتحارية منها في صفوف الأمة، لإفساد عقائد الناس، وتخريب ضمائرهم، ونشر الرعب والبلبلة بين صفوفهم، وإفساد ما بينهم وبين ولاتهم، واغتيال من لا يستجيب لهم، أو يقف حجر عثرة في طريقهم، أو يفضح مكايدهم، من أهل العلم أو السلطان.

ومن بين هذه القلاع، قلعة ألموت التي كان يتحصن بها داعي دعاتهم، وشيخ جبلهم، ونائب إمامهم نزار المستور: الحسن بن علي بن محمد الصباح الحميري (ت 518هـ)[1]. وقلعة أصبهان التي كان بها طاغيتهم، وشيخ داعي دعاتهم: أحمد ابن عبد الملك بن عطاش الذي قتل سنة 500هـ[2].

وقد بلغ من خطر هذه الطائفة الباطنية، وقوة مكرها، وشدة بطشها، أن تسربت وتسللت إلى مراكز القرار، وثكنات الجيوش، وامتدت خناجرها المسمومة إلى قلوب الخلفاء[3]، والوزراء[4]، والقضاة[5]، والعلماء[6]، وأمراء الجند[7]، وكان الأعيان والوجهاء لعموم البلوى بشرورها، واغتيالاتها، لا يغادرون بيوتهم إلا والدروع تحت ملابسهم[8]. بل وكان أكثر الناس إذا تأخر فرد من عائلتهم في العودة إلى بيته بعد صلاة العشاء، لم يشكوا أن الباطنية قد قتلوه، وتقبلوا فيه العزاء[9].

---

(1) ن: مزيد بيان عن الحسن الصباح، ودعوته النزارية الباطنية في تاريخ الإسلام 4 / 255 - 260، والكامل: 8 / 201 - 317.

(2) انظر خبر هذا الطاغية وتاريخ مقتله في: سير النبلاء 19 / 396 - 416. والكامل: 8 / 201 - 242.

(3) مثل الخليفة العباسي المسترشد، وابنه الراشد. ن: سير النبلاء 19 / 561 - 568. وما بعدها.

(4) مثل الوزير نظام الملك. ن: سير النبلاء 19 / 94 - 96، والكامل 8 / 161.

(5) مثل القاضي الفقيه الحنفي أبي العلاء صاعد النيسابوري. ن: الكامل 8 / 296. والقاضي أبي سعد محمد بن نصر الهروي بهمدان. ن: الكامل 8 / 319.

(6) مثل أبي القاسم بن أبي المعالي الجويني إمام الحرمين بنيسابور. ن: الكامل 8 / 192.

(7) مثل أقسنقر البرسقي. سنة 520هـ. ن: الكامل 8 / 320.

(8) ن: سير النبلاء 19 / 396 - 416.

(9) ن: الكامل 8 / 200.

ثانيًا: ظهور إمارات عربية صغيرة متعادية، داخل محيط دولة الخلافة، تستقل بأمرها أحيانًا، ويتردد ولاؤها بين العباسيين ببغداد، والفاطميين بمصر أحيانًا أخرى.

ومن هذه الإمارات: إمارة آل مزيد بالحلة، وإمارة آل منقذ بشيزر، وإمارة بني عمار بطرابلس، وإمارة العقيليين بالموصل وحلب.

ثالثًا: ظهور دويلات مستقلة كثيرة تابعة للخلافة العباسية، ومتعادية فيما بينها يعرف بعضها بالأتابكيات، وبعضها بدول الشاهات[1].

ومن أشهر الأتابكيات المذكورة: أتابكية دمشق، المعروفة بالدولة البورية، وفيها برز إمامنا الفندلاوي، وكان من خبره ما سنتعرف عليه لاحقًا، وأتابكية الموصل قاعدة دولة الشهيد عماد الدين زنكي، وأتابكية ديار بكر، وأتابكية أربل[2].

رابعًا: احتلال بيت المقدس سنة 492هـ، وتأسيس مملكة صليبية به تحت قيادة جُودْفْرِي الذي لقب بحامي قبر المسيح وكذا احتلال الرها سنة 490هـ، وأنطاكيا سنة 491هـ، وطرابلس سنة 503هـ، وإنشاء إمارات صليبية بها: الأولى تحت قيادة بُولْدوين، والثانية تحت قيادة بُوهميند، والثالثة تحت قيادة رِيمُند الصنجيلي[3].

وقد تم هذا الاحتلال في إطار الحملة الصليبية الأولى، التي دعا إليها البابا أوربان الثاني سنة 488هـ، وحمل لواءها بطرس الناسك، ويسر سبيلها، وأمدها بالأساطيل البحرية والمؤن اللازمة رؤساء جمهوريات جينوة، وبيزا، والبندقية بجنوب إيطاليا، وقاد جيوشها جملة من القادة والأشراف، أغلبهم من الفرنسيين. هم: بولدوين، وبوستيس وروبرت دوق نورمينديا، وروبرت كونت فلاندر، وستيفن كونت شارتر، وريمون كونت تولوز، وهيو أوف فيرماندو، وبوهيمند دوق تورنتم، وابن أخيه تانكرد[4].

وقد ارتكب الصليبيون من الفظائع والأعمال الوحشية في هذه الحملة، ما

---

(1) ن: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية 2 / 45.
(2) ن: تاريخ الإسلام 4 / 61 - 101.
(3) ن: تاريخ الإسلام 4 / 234 - 235.
(4) ن: تاريخ الإسلام 4 / 230 - 233، وماهية الحروب الصليبية 109 - 134.

تقشعر له الجلود، وتشيب لهوله الولدان، فقد مثلوا بأهل أنطاكيا أشنع تمثيل، وقتلوا منهم عشرة آلاف[1]، وفعلوا بأهل معرة النعمان أكثر من ذلك بكثير كما جاء في «كامل» ابن الأثير[2]، وقتلوا «بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كبيرة من أيمة المسلمين، وعبادهم، وزهادهم، ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف»[3].

وقد نقل وُل ديورانت عن القس ريمند الأجيلي الذي حضر هذه المذبحة الرهيبة قوله: «وشاهدنا أشياء عجيبة؛ إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رميًا بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا بالنار، وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس، والأيدي، والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده، يسير بين جثث الرجال والخيل»[4]، وقال شاهد عيان آخر: «إن النساء كن يقتلن طعنًا بالسيوف، والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم، ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح سبعون ألفًا من المسلمين الذين بقوا في المدينة»[5].

وقد كان لهذه الفظائع، ولاحتلال بيت المقدس، أثر بالغ في نفوس المسلمين عامة، والشعراء منهم خاصة؛ حيث نظموا عدة قصائد في ذكر هذه الوقائع المفجعة، تحسروا فيها على ما حل بالمسلمين، ومدينتهم المقدسة، وذكروا ما فعله الأفرنج بمقدسات الإسلام من ازدراء وامتهان، وطالبوا الأمة الإسلامية بالنهوض العاجل للجهاد في سبيل الله لتحرير البلاد، وتخليص العباد، مما يعانونه على يد الصليبيين من القهر والاضطهاد.

---

(1) ن: تاريخ الإسلام 4 / 234. وقال في النجوم الزاهرة 5 / 147. «وأما أنطاكيا، فقتل منها وسبي من الرجال والنساء، والأطفال، ما لا يدركه حصر».

(2) حيث قال: «فوضع الفرنج فيهم (أي في أهل معرة النعمان) السيف، ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف، وسبوا السبي الكثير...». ن: الكامل 8 / 187، والنجوم الزاهرة 5 / 146، وجهاد المسلمين في الحروب الصليبية 106 - 107.

(3) ن: الكامل 8 / 179.

(4) ن: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام 40، للدكتور محمد علي الهرفي. مؤسسة الرسالة. ط3 ـ 1980.

(5) انظر الحاشية السابقة.

ومن أروع، وآلم، ما نظم في هذا الشأن قصيدة لأحد الشعراء نقلها أبو المحاسن في «النجوم الزاهرة»[1]، جاء فيها:

أحل الكفر بالإسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع، وحمى مباح ... وسيف قاطع، ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا ... ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا ... على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق ... وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور، لو تأملهن طفل ... لطفل في عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر ... وعيش المسلمين إذا يطيب
أما للّه، والإسلام حق ... يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا اللّه، ويحكم أجيبوا

وكذا قصيدة الشاعر أبي المظفر محمد بن أبي العباس الأبيوردي (ت 557هـ) التي منها قوله:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وكيف تنام العين مِلْءَ جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي، أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت، ومن دمي ... توارى حياء حسنها بالمعاصم
يكاد لهن المستجن بطيبة ... ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العِدَى ... رماحهم، والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفًا من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويُغضي على ذل كماة الأعاجم
فليتهم إذا لم يذودوا حمية ... عن الدين، ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذْ حِمَيَ الوغى ... فهلا أتوه رغبة في الغنائم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها الروم عض الأباهم

(1) 5 / 151. ون: شعر الجهاد... 94، وجهاد المسلمين... 128.

فـإن أنتـم لـم تغضبـوا بعـد هـذه رمينـا إلـى أعـدائنـا بـالجـرائـم[1]

واستجاب العلماء والعامة لهذه الصرخات الموجعة، والاستغاثات البليغة، فثاروا وضجوا، وخرجوا مستنفرين من دمشق «مع قاضيها زين الدين أبي سعيد الهروي، فوصلوا بغداد، وحضروا في الديوان، وقطعوا شعورهم، واستغاثوا وبكوا، وقام القاضي في الديوان، وأورد كلامًا أبكى الحاضرين، وندب من الديوان من يمضي إلى العسكر السلطاني، ويعرفهم بهذه المصيبة»[2]، وتلا قصيدة الأبيوردي السابقة، ولكنه لأمر أراده الله لم يجد آذانًا صاغية ولا قلوبًا واعية لدى المسؤولين عن أمر الرعية، فعاد هو ورفقته «من بغداد إلى الشام بغير نجدة، ولا قوة إلا بالله»[3].

ولم يكن بالإمكان فعل شيء ذي بال من قبل باقي دول العالم الإسلامي، فالفاطميون بمصر كان أمرهم قد آل إلى الضعف والانحلال، والمرابطون بالمغرب ـ وهم أقوى دولة إسلامية في هذا العصر ـ كانوا منشغلين بصد حملة صليبية أخرى على الأندلس، وتقوية صف هذا البلد، بالقضاء على ملوك طوائفه، وتوحيد كلمته تحت رايتهم، لمواجهة الأخطار المحدقة به.

وقد زاد من تضاعف المآسي، انتشار العيارين والشطار، وقطاع الطرق، وتفاقم أمرهم إلى حد أن فكر أحدهم ـ ويعرف بابن بكران[4] ـ بضرب السكة باسمه، وكذا وقوع الزلازل المدمرة[5]، والمجاعات والطواعين الماحقة[6] من حين

---

(1) ن: الكامل 8 / 189، وشعر الجهاد... 126 - 128، وجهاد المسلمين... 127 - 128.

(2) ن: النجوم الزاهرة 5 / 150 - 152.

(3) انظر الحاشية السابقة.

(4) الذي عظم أمره ببغداد والعراق سنة 532هـ، وكثر «أتباعه، وصار يركب ظاهرًا في جمع من المفسدين... وكان معه رفيق له يعرف بابن البزار، فانتهى أمرهما إلى أنهما أرادا أن يضربا باسمهما سكة في الأنبار...». ن: الكامل 8 / 362.

(5) منها زلزال سنة 533هـ الهائل الذي هز الشام، والجزيرة، وكثيرًا من البلاد، واستمر في دفعات من 14 صفر إلى 19 منه. ن: الكامل 8 / 365، وزلزال سنة 487هـ قبله. ن: الكامل 8 / 173.

(6) مثل ما وقع في سنة 512هـ، وسنة 517هـ، وسنة 543هـ، ن: الكامل 8 / 285 - 314 و9 / 23.

لحين، هذا إضافة إلى ما كانت تمر به البلاد من الفتن التي لا تكاد تهدأ بين الأشاعرة وغلاة الحنابلة[1].

وضع أتابكية دمشق، أو الدولة البورية:

الأتابك كلمة تركية معناها: الأمير الوالد. ومربي الملك، وهو أحد ألقاب الوزير نظام الملك، ولعله أول من عرف به، لقبه به السلطان ملكشاه السلجوقي[2].

والأتابكة مماليك الأتراك، كانوا يشترون بالمال، ويعتنقون الإسلام، وينشؤون تنشئة إسلامية خالصة، في بلاط الخليفة، أو السلطان، وتسند إليهم بعض الوظائف، كرئاسة الخدم، وتنظيم القصور، أو العمل بالحرس.

وإذا ما ظهرت كفاءتهم، وتأكد إخلاصهم وولاؤهم، قلدوا أعلى المناصب في الجيش والبلاط، وعينوا حكام أقاليم في الدولة السلجوقية.

وكان السلاجقة يعهدون بتربية أبنائهم إلى بعض هؤلاء الأتابكة الذين ترعرعوا في كنفهم، وإذا ما عينوا أحد أبنائهم على مدينة من المدن، أو ولاية من الولايات، أرسلوهم معهم ليعينوهم على الحكم، ويسدوا إليهم ما يرونه من النصائح.

وقد استغل بعض الأتابكة هذا الوضع لصالحهم، فصاروا أصحاب النفوذ الفعلي دون سادتهم، واتخذوا لهم ألقابًا تروق لهم، ووسعوا رقعة ولايتهم؛ بل ونقلوا الملك لهم، وأورثوه أولادهم من بعدهم، ومن ثم أطلق على إماراتهم دول الأتابكة[3].

ومن دول الأتابكة الكثيرة التي عرفها هذا العصر، أتابكية دمشق التي استمر حكمها من سنة 497هـ إلى سنة 549هـ، والتي تنسب إلى مؤسسها الأتابك أبي منصور سيف الإسلام، ظهير الدين طغتكين مملوك تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، الذي جعل الأمر له بعد وفاة دقاق بن تتش، وتعرف هذه الأتابكية أيضًا بالدولة البورية نسبة إلى بوري بن طغتِكين.

وقد تأسست هذه الأتابكية على إثر احتلال الصليبيين لبيت المقدس، وفي

---

(1) من ذلك على سبيل المثال ما وقع في بغداد سنة 502هـ، و471هـ، و475هـ. ن: الكامل 8 / 125 - 131 - 256.

(2) ن: الكامل 8 / 115، وتاريخ الإسلام 4 / 30.

(3) ن: تاريخ الإسلام 4 / 61 - 64.

وقت كانت فيه مشاعر الحسرة، والألم، والغضب، والرغبة في الجهاد في سبيل اللّه لدى الجماهير الشعبية في غاية التأجج، ولذلك لم يكن أمام مؤسسها طغتكين ـ لاكتساب ثقة الناس، والتفافهم حوله ـ إلا أن يجعل وكده لزوم باب الجهاد، لاستخلاص ما يمكن استخلاصه، من حواضر الإسلام، التي بيد الصليبيين المعتدين، ولم يكن ينقصه ما يلزم لذلك من المؤهلات الشخصية؛ فقد كان «شهمًا شجاعًا مهيبًا. . . مؤثرًا للعدل»[1].

وهكذا خاض معارك عديدة ضد الصليبيين منها معركة سنة 499هـ التي هزم فيها أحد قادة الأفرنج شر هزيمة، بعد أن أظهر هو وأتباعه شجاعة نادرة، وتضحيات كبيرة، ثم عاد منصورًا إلى دمشق، فزين البلد أربعة أيام[2]، ومنها في نفس السنة خروجه إلى حصن رفينة وافتكاكه من يد الفرنج بعد قتل 500 نفر منهم[3]، ومنها إيقاعه سنة 515 هـ بطائفة من الفرنج؛ حيث قتل وأسر منهم الكثير، وأرسل من أسراهم، وما غنم منهم إلى الخليفة والسلطان[4].

وقد قال الذهبي في حقه: «لولا أن اللّه أقام طغتكين للإسلام بإزاء الفرنج، وإلا كانوا غلبوا على دمشق، فقد هزمهم غير مرة»[5].

ولولا أنه في سنة 520هـ سلم لداعي الإسماعلية الباطنية بهرام قلعة بانياس بعد أن استفحل البلاء به وبأتباعه، وبإشارة من وزيره أبي علي طاهر بن سعد المزدقاني الذي كان يوالي بهرام في سره، لولا أنه فعل هذا، لم يكن في حياته وجهاده ما يؤاخذ به، ويلام عليه.

وفي سنة 522هـ بعد جهاد طويل، وسيرة محمودة في الرعية[6] توفي رحمه اللّه تعالى، «فأبكى العيون، وأنكأ القلوب، وفت في الأعضاد، وفتت الأكباد، وزاد في الأسى»[7]، ولم تبق في دمشق محلة. «ولا سوق، إلا والمأتم قائم عليه

---

(1) ن: سير النبلاء 19 / 519 - 521.
(2) ن: الكامل 8 / 230 - 231.
(3) ن. م.
(4) ن: الكامل 8 / 304.
(5) ن: سير النبلاء 19 / 519 - 521.
(6) ن: الكامل 8 / 327.
(7) ن: سير النبلاء 19 / 519 - 521.

فيه، لعدله وحسن سيرته»[1].

وبعد وفاته تولى الملك بعده ابنه الأكبر تاج الملوك بوري بوصية منه له. فأقر وزير أبيه أبا علي المزدقاني على وزارته، ثم انصرف لما يجب لبناء دولته وتوسيعها وحمايتها من الصليبيين المتربصين بها.

وفي رمضان من سنة 523هـ اكتشف أن وزيره المزدقاني يتآمر عليه مع إسماعيل الباطني صاحب بانياس، وأنه أصبح لهما أنصار عديدون بدمشق تحت إمرة باطني تابع لهما يقال له: أبو الوفا، كما اكتشف أن الوزير المذكور قد أرسل إلى الفرنج ليسلم إليهم المدينة في مقابل تمليكه مدينة صور، وأنه اتخذ بتعاون مع الملاحدة الباطنية الإجراءات اللازمة لتسهيل احتلال المدينة، وتسليمها لهم، فاستدعاه إليه، وقتله، «وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف نفس... وكفى اللّه المؤمنين شرهم، ورد على الكافرين كيدهم»[2].

ولما علم إسماعيل صاحب بانياس بما وقع لأتباعه وللوزير المزدقاني بدمشق، سلم المدينة إلى الفرنج وانتقل هو وجمع من أصحابه إليهم، فلاقوا منهم شدة، وذلة وهوانا.

وأما الفرنج، فإنه قد عظم عليهم فداحة خسارة ما أملوا من ملك دمشق، بقتل عميلهم المزدقاني، والباطنية، «فاجتمعوا كلهم: صاحب القدس، وصاحب أنطاكيا، وصاحب طرابلس، وغيرهم من الفرنج، وقمامصتهم، ومن وصل إليهم في البحر للتجارة والزيارة... وساروا إلى دمشق ليحاصروها... ووصل الفرنج في ذي الحجة، فنازلوا البلد، وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الميرة، والإغارة على البلاد.

فلما سمع تاج الملوك أن جمعًا كثيرًا قد ساروا إلى حوران لنهبه، وإحضار الميرة، سير أميرًا من أمرائه يعرف بشمس الخواص في جمع من المسلمين

---

(1) ن. م.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن إمامنا قد استوطن بانياس، ثم دمشق من بلاد الشام، في عهد هذا الملك الهمام، وكان من المنوهين بفضله، والمعجبين بجهاده وعدله، ومن أهل الحظوة لديه.

(2) ن: الكامل 8 / 328 - 329.

إليهم . . . ولقوا الفرنج من الغد، فواقعوهم، واقتتلوا، وصبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون، وقتلوهم، فلم يفلت منهم غير مقدمهم، ومعه أربعون رجلاً، وأخذوا ما معهم، وهي عشرة آلاف دابة موقرة، وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق، لم يمسسهم قرح.

فلما علم الفرنج ذلك ألقى اللّه في قلوبهم الرعب، فرحلوا عنها شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وميرة، وغير ذلك، وتبعهم المسلمون، والمطر شديد، والبرد عظيم، يقتلون كل من تخلف منهم، فكثر القتلى منهم»[1].

وحتى لا يبقى في نفوس العامة وعقولهم شيء مما بثه الباطنيون فيها من سموم التضليل، والتشكيك والتلبيس، وحتى تكشف لهم أكاذيبهم وأضاليلهم، ويعرفوا حكم اللّه فيهم، وفي موادتهم وموالاتهم، دعا الملك بوري العلماء إلى إصدار فتاوى فيهم وفي عقائدهم الباطلة، وكان ممن أجاب لذلك الإمام الشهيد أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي رحمه اللّه، وذلك بكتابة رسالة هامة في الموضوع[2]، سنعرفها لاحقًا، حين الحديث عن آثاره العلمية.

وقد أغضب دعاة الباطنية، ما فعل تاج الملوك بأتباعهم، وما اتخذ من إجراءات ضدهم، فندبوا اثنين من رجالهم لاغتياله، فاندسا داخل جيشه، وصبرا وتربصا، حتى أمكنتهما الفرصة منه، فانقضا عليه سنة 525هـ: أحدهما بالسيف والآخر بالسكين، فجرحاه جرحًا بليغًا، مات من أثره بعد ذلك سنة 526هـ، رحمه اللّه تعالى.

قال ابن الأثير في شمائله: «وكان بوري كثير الجهاد شجاعًا مقدامًا سد مسد أبيه، وفاق عليه، وكان ممدحًا أكثر الشعراء مدائحه، لا سيما ابن الخياط»[3].

وقال الذهبي: «وقيل كان عجيبًا في الجهاد، لا يفتر عن غزو الفرنج، ولو

---

(1) ن: الكامل 8 / 329.

(2) ن: فتوى الفندلاوي.

(3) ن: الكامل 8 / 337، وفيه كما ترى أن ابن الخياط أكثر من مدح تاج الملوك، ولا يصح واللّه أعلم، لأن ابن الخياط مات سنة 517هـ أي قبل تولي تاج الملوك. ن: الكامل 8 / 314.

كان له عسكر كثير لاستأصل الفرنج»[1].

ولما انتصر في المعركة السابقة الذكر، مدحه الشاعر أبو عبد اللّه محمد بن نصر المعروف بابن القيسراني بقصيدة رائعة طويلة من أبياتها قوله:

الحـق مبتهـج، والسيـف مبتسـم ... ومـالُ أَعْـدَا مجيـر الـديـن مقتسـم
قدت الجياد، وحصنت البلاد وأمـ ... ـنت العباد، فأنت الحل والحرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها ... مقاعد الحزم في أوساطها، الحزم
وسست جندك والرحمان يكلؤه ... سياسة ما يعفى إثرها ندم
وقفت في الجيش والأعلام خافقة ... بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك اللّه صونًا عن عيونهم ... واللّه يعصم من باللّه يعتصم

وقوله:

سَرَوْا لينتهبوا الأعمار، فانتهبوا ... قتلاً، ويغتنموا الأموال فاغتُنموا
وأقبلت خيلنا تردي بخيلهم ... مجنونة، وعلى أرماحها التمم
وأدبر الملك الطاغي يزعزعه ... حر الأسنة، وهو البارد الشبم
وافَوْا دمشق، ظنوا أنها جدة ... ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم ... إن لم يزولوا سراعًا زالت الخيم
فغادروا أكثر القربان، وانجفلوا ... وخلفوا أكثر الصلبان وانهزموا
مستسلمين لأيدي المسلمين، وقد ... أغرى الفنا بتمادي خطفهم نهم[2]

وبعد وفاة تاج الملوك سنة 526هـ تولى بعده ابنه شمس الملوك إسماعيل بوصية منه له، فابتدأ «أمره بالرفق بالرعية والإحسان إليهم، فكثر الدعاء له، والقصاد عليه»[3]، ثم ما لبث أن تغير حاله، فبالغ في الظلم، ومصادرة الأموال، والتعذيب فعظم ذلك على الناس، ونفروا عنه[4].

كان كثير الشجاعة والإقدام، استطاع أن يستنقذ بانياس من الفرنج في يومين سنة 527هـ، وذلك بعد نقضهم الهُدْنة بتعرضهم إلى أموال جماعة من تجار دمشق

---

(1) ن: سير النبلاء 19 / 328.
(2) ن: شعر الجهاد 239 - 242.
(3) ن: الكامل 8 / 337.
(4) ن: سير النبلاء 19 / 575 - 576، والكامل 8 / 341.

ببيروت وأن يوقع بهم هزيمة منكرة، قتل فيها منهم خلق كثير[1].

كما أنه بعد أن استرد سنة 527هـ حماة من يد عماد الدين زنكي، واستولى سنة 528هـ على شقيف التيرون، وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم، خافه الفرنج وجمعوا له، وساروا إلى حوران من أملاكه، فنهبوا وخربوا، فشغلهم شمس الملوك ببعض مناوشة عدة أيام، وخالفهم ببعض العسكر في غفلة منهم إلى طبرية والناصرة، وعكا، وما جاورها من بلادهم، فنهب، وخرب وأحرق، وسبى النساء والذرية، وامتلأ هو ومن معه من الغنائم.

ولما علم الفرنج بذلك داخلهم من الجزع ما جعلهم يرحلون عن حوران، ويطلبون تجديد الهدنة، فأجابهم شمس الملوك لذلك[2].

وفي سنة 527هـ وثب على شمس الملوك بعض مماليك جده طغتكين ـ وربما كان من الباطنية المتسترين ـ فضربه بسيف، فلم يعمل فيه شيئًا، فقبض عليه، وقرر ما الذي حمله على ما فعل؟ فأقر بعد تعذيب شديد على جماعة فيهم سونج أخو شمس الملوك، بأنهم دفعوه إلى فعل ما فعل، فقتلهم شمس الملوك جميعًا دون تثبت في أمرهم، ولا تأكد من صحة ما ادعي عليهم.

وكان قبل قضائه بقتلهم، تدخلت أمه زمرد الخاتون بنت جاولى، وجمع من العلماء والوجهاء فيهم الإمام الفندلاوي وغيره مستشفعين لهم، وطالبين العفو عنهم، ومذكرين شمس الملوك بأن ما ادعى عليهم قد يكون من مكر الباطنية ومكايدها للقضاء على المصلحين في الأمة، تمزيقًا لوحدتها، وتفريقًا لكلمتها، وبثًا للشك وعدم الثقة بين أفرادها؛ غير أنه ركب رأسه، فلم يقبل نصح الناصحين، ولا شفاعة الشافعين. بل هدد أمه بالقتل إذا هي عاودت التدخل في شؤون الحكم[3].

وفي سنة 529هـ بعد أن ازداد ركوبه طريق الظلم، ومصادرته للعمال وغيرهم، ومبالغته في العقوبات لاستخراج الأموال، ازداد سخط العامة والخاصة عليه، فتدخل العلماء والصلحاء وفيهم إمامنا الشهيد الفندلاوي أيضًا لدى والدته، وعرفوها بما آل إليه أمر ولدها من الجبروت والاستبداد، فساءها ما سمعت،

---

(1) ن: الكامل ... / 339، وسير النبلاء 19 / 575 - 576.
(2) ن: الكامل 8 / 341 - 342.
(3) ن: الملكة الأم 7 - 28.

وأشفقت منه، ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر.

وكان قد بلغها من أمر ولدها أيضًا أنه كاتب عماد الدين زنكي يحثه على الوصول إلى دمشق ليسلمه مقاليدها، ويحذره من أنه إذا أهمل المجيء إليه، سيسلم البلد للأفرنج.

فاجتمع لها من كل ذلك ما جعلها تضحي بولدها في سبيل مصلحة البلد، فأمرت غلمانها بقتله، فقتل، فسر الناس لمصرعه، وبالراحة من شره، وكثر الدعاء لها[1].

وبعد قتل شمس الملوك سنة 529هـ تولى الأمر أخوه شهاب الدين محمود بن بوري، ثم بعد مقتل هذا الأخير سنة 533هـ كتب معين الدين أُنُر مملوك جده طغتكين إلى أخيه جمال الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك، واستدعاه ليملك بعد أخيه، فحضر في أسرع وقت، وفوض أمر دولته إلى معين الدين، وزاد في علو مرتبته، وأقطعه بعلبك، وزوجه أمه، فسار هو الجملة والتفصيل[2].

ولم يهنأ جمال الدين بالملك طويلاً حيث مات سنة 534هـ، وتولى الملك ابنه مجير الدين أبو سعيد أُبُق، وكان حدثًا، فدبر الملك، ورتب الدولة معين الدين أُنر، والوزير مؤيد الدين ابن الصوفي[3].

والواقع أنه بمقتل شمس الملوك دخلت الدولة البورية في طور الضعف، رغم ما بذل معين الدين من جهود في المحافظة على قوتها واستقلالها، وذلك بسبب ضعف ملوكها بعده، وتواصل ضغط عماد الدين زنكي عليها بقصد إخضاعها لنفوذه، وإدخالها ضمن دولته، في إطار جهوده الرامية إلى توحيد الأمة الإسلامية وجمع كلمتها بالمشرق من أجل مواجهة الأخطار المحدقة بها من قبل الغزاة الصليبيين المغتصبين.

وقد ازداد هذا الضغط شدة بعد تمكن عماد الدين من تحرير مدينة الرها سنة 539هـ، واستخلاصها من يد أميرها جوسلين الثاني؛ حيث ارتبطت قلوب الجماهير به، وتعلقت آمالهم عليه، وتأكد لديهم أنه وحده القائد المجاهد القادر على تخليص الأمة مما أصابها من الذل والخذلان، والهزيمة والخسران.

---

(1) ن: الكامل 8 / 345 - 346، وسير النبلاء 19 / 575 - 576، والملكة الأم 50 - 65.
(2) ن: الكامل 8 / 364.
(3) ن: الكامل 8 / 367، وسير النبلاء 20 / 365.

ولم تكن دولة دمشق وحدها التي هالها تزايد نفوذ عماد الدين، وتواصل انتصاراته وفتوحاته وإنما الصليبيون ـ وبشكل أشد وأعنف ـ أيضًا، وذلك لأنهم رأوا في سقوط مدينة الرها: عاصمة أول إمارة لهم في المنطقة في يده، ثم عجز أميرها جوسلين عن استردادها من ولده نور الدين بعد موته سنة 541هـ، رأوا في ذلك خطرًا داهمًا، يهدد وجودهم ببلاد الشام، ويهدف إلى اقتلاع جذورهم منها، وهكذا أخذوا يعدون العدة للقيام بحملة صليبية جديدة، واختاروا دمشق هدفًا لهذه الحملة رغم ما كان بين أفرنجة الشام، وبين متولي أمرها معين الدين آنر من هدنة، سعيًا منهم في قطع الطريق على نور الدين زنكي، ومنعه من تهديد مماليكهم بالمنطقة عامة، ومملكة بيت المقدس خاصة[1].

وفي سنة 543هـ قام الصليبيون بحملتهم الثانية على دمشق بقيادة كُنْراد الثالث أمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، ومعهم أفرنجة إماراتهم بالشام، وحاصروا المدينة «فخرج لهم أهل البلد والعسكر، فقاتلوهم وصبروا لهم، وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن دوناس الفندلاوي المغربي، وكان شيخًا كبيرًا فقيهًا صالحًا، فلما رآه معين الدين، وهو راجل قصده وسلم عليه، وقال له: يا شيخ، أنت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين، وسأله أن يعود، فلم يفعل، وقال له: قد بعت، واشترى مني، فواللّه لا أقلته، ولا استقلته، يعني قول اللّه تعالى: ﴿إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾، وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل. . .»[2] رحمه اللّه تعالى.

وكاد الصليبيون أن يقتحموا المدينة لولا أن اللّه أمد أهلها الصابرين بسيف الدين غازي بن زنكي، وأخيه نور الدين، اللذين استنجد بهما معين الدين أنر، فجاءا لنجدته بجيش جرار، قذف اللّه به الرعب في قلوب الكافرين، فانقلبوا على أعقابهم خاسرين، ورحلوا عن المدينة منهزمين مخذولين، ولم ينج أحد قادتهم وهو لويس السابع من الموت إلا بأعجوبة، وكفى اللّه المؤمنين شرهم، وأذاقهم حلاوة النصر على أعدائهم، ففرحوا بنصر اللّه المبين، وقالوا: الحمد للّه رب العالمين[3].

---

(1) ن: ماهية الحروب الصليبية 137 - 138.
(2) ن: الكامل 9 / 20 - 21.
(3) ن: الكامل 9 / 20 - 21، وماهية الحروب الصليبية 137 - 138.

وقد كانت هذه الهزيمة المنكرة التي حلت بالصليبيين بداية النهاية بالنسبة لوجودهم بالشام، حيث توالت انكساراتهم، وانتصارات المسلمين عليهم، إلى أن خلص الله القدس من احتلالهم على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 583هـ.

وفي سنة 544هـ توفي معين الدين أُنُر، الرجل القوي، وصاحب الأمر على الحقيقة في دمشق، فانفرد مجير الدين أبق بتدبير الملك بعده، ولم يكن محمود السيرة في الرعية، ولا صاحب التدبير المحكم في شؤون الدولة، فصبر له أهل دمشق مدة، ثم لما لم يروا منه إلا القسوة وسفك الدماء، استدعوا نور الدين زنكي، فأخذ المدينة بالأمان سنة 549هـ، وسلم لمجير الدين مدينة حمص بدلها، فانتهت بذلك الدولة البورية بأتابكية دمشق، ولله الأمر من قبل ومن بعد[1].

المطلب الثاني: الحالة الثقافية:

الحالة الثقافية عامة:

رغم ما كانت تعرفه الحالة السياسية في عصر المؤلف من ضعف، واضطراب، وتدهور، وما كانت عليه الأمة من تفرق، وتمزق، وحروب داخلية وخارجية لا تكاد تهدأ ـ كما تقدم ـ، فإن الحالة الثقافية عمومًا قد ظلت في نهوض وازدهار في شتى المجالات المعرفية، ولعل السبب في ذلك يعود:

أولاً: إلى أن تفكك الأمة، وانقسامها إلى دويلات منفصلة، مستقلة، متنافسة، أدى إلى توجيه هذه الدويلات أموالها أو بعضها إلى رعاية العلم، وتشجيع العلماء، فكان أن اتجه هؤلاء إلى الإنتاج والإبداع، فازدهرت بذلك الثقافة، والنشاط العلمي في العديد من الحقول المعرفية.

ثانيًا: إلى حرص بعض الأمراء والوزراء على تقريب العلماء والمفكرين، ورعايتهم والإغداق عليهم، وحضور مجالسهم، إما لرغبتهم في العلم، أو لتزيين مجالسهم بالعلماء، أو لاجتلاب محبة الشعب لهم بهم، الأمر الذي أدى إلى التنافس في تحصيل العلم، لنيل الحظوة عند هؤلاء الأمراء، والوزراء والفوز بوافر عطاياهم.

ثالثًا: إلى الاحتكاك الفكري العنيف الذي كان بين الفرق والمذاهب المختلفة، كالاحتكاك بين أهل السنة، والمعتزلة، وبينهما وبين الشيعة، والاحتكاك

---

(1) ن: سير النبلاء 20 / 365.

بين الأشاعرة والحنابلة، والاحتكاك بين الفقهاء، والصوفية، وبينهم وبين الفلاسفة.

وقد أدى هذا الاحتكاك ـ الذي كانت ميادين المبارزة والصراع فيه هي مجالس المناظرات في المساجد، والدور والمنتديات، وأحيانًا كثيرة قصور الأمراء والوزراء ـ إلى نشاط عجيب في الحركة العلمية، أفرز العديد من المواهب والطاقات، وأنتج ما لا يقدر بثمن من الكتب والمصنفات[1].

رابعًا: إلى ما أدى إلى احتلال بيت المقدس من قبل الصليبيين من أثر عميق في نفوس العلماء، والشعراء، والوعاظ، والخطباء، جعل الكثير منهم يؤلف في بيان حكم الجهاد وفضله[2]، أو ينشد القصائد اللاهبة العصماء في الدعوة إليه، ومدح من يقوم به، والثناء عليه[3]، أو يحرك ويهز من فوق المنابر في المساجد، ومجالس التذكير، كوامن الإحساس، ومشاعر الإيمان في الناس بالحث عليه، والتحريض على الانخراط فيه[4]، فأدى كل هذا إلى حركة علمية مباركة في هذا الباب، كان من أثرها تواصل حركة الجهاد وتناميها، إلى أن تمكن المسلمون من استرداد مدينة القدس وتحريرها سنة 583هـ.

ومن مظاهر ازدهار الثقافة في هذا العصر، بناء الكثير من المدارس، وتوفير ما يلزم لها للقيام بمهامها، من الموارد المالية الثابتة، والأساتذة الأكفاء المبرزين، والمصادر والمراجع الأساسية، والبرامج الدقيقة المحددة، والرعاية الضرورية، والخدمات اللازمة لاستقرار الطلاب بهذه المدارس، ومتابعتهم الدراسة بها في جو يساعد على البحث والتحصيل[5].

ومن هذه المدارس على سبيل المثال: ما بناه نظام الملك الحسن بن علي الطوسي (ت 485هـ) وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي ثم ابنه ملكشاه من

---

(1) ن: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد 17 - 18، للدكتور: عبد المجيد أبو الفتوح بدوي. دار الوفاء. ط2 ـ 1988.

(2) كأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (ت 597هـ). ن: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام. للدكتور محمد علي الهرفي. مؤسسة الرسالة ـ بيروت. ط3 ـ 1980.

(3) كالكثير من شعراء الشام، مثل: ابن الخياط، وابن القيسراني، وأسامة بن منقذ، والأبيوردي وغيرهم.

(4) كالإمام الفندلاوي، والقاضي كمال الدين الشهرزوري وغيرهما.

(5) ن: التاريخ السياسي والفكري 175 - 188.

بعده، في كل من بغداد، وبلخ، ونيسابور، وهراة، وأصبهان، والبصرة، ومرو، وآمل، والموصل، وما بناه نور الدين زنكي (ت 569هـ) في كل من حلب ودمشق، وغيرهما من بلاد الشام[1]، حتى صارت دمشق في زمانه كما يقول أبو الحسن علي ابن منصور السروجي (ت 572هـ).

كأنها جنة للخلد دانية ... قصورها فتحت منها المقاصير
في كل قطر بها للعلم مدرسة ... وجامع، جامع للدين معمور
يتلى القرآن به في كل ناحية ... والعلم يذكر فيه، والتفاسير
تكامل الحسن فيه مثل ما كملت ... أوصاف مولى بنشر العدل مشهور
الملك والدين والدنيا بأجمعها ... وللخليفة في أنواره سور[2]

ولم يكن أمر بناء المدارس موكولاً إلى الأمراء والوزراء فقط، ولا خاصًا بهم، وإنما كان يقوم به، وينفق عليه، ويوقف الأوقاف له. العلماء[3]، والوجهاء، وأهل الخير من الرجال والنساء[4] أيضًا، كما لم تكن هذه المدارس خاصة بمذهب معين، أو فن من العلم محدد، بل كان منها الشافعية ـ وهي أكثرها ـ والحنفية، والحنبلية، والمالكية، كما كان يدرس بها الفقه، والأصول، والجدل، والكلام، وغير ذلك من الفنون.

ثم إن هذه النهضة الثقافية لم تتجل في بناء المدارس فقط، وإنما أيضًا في بناء دور الحديث[5]، وخوانق الصوفية[6]، والمكتبات، وغير ذلك من المؤسسات

---

(1) ن: التاريخ السياسي والفكري 180 - 205 - 218.

(2) ن: مرآة الزمان ج8. ق1. ص329. لسبط ابن الجوزي. دائرة المعارف العثمانية. ط1. 1951 - 1952.

(3) مثل شرف الإسلام أبي القاسم عبد الوهاب الشيرازي (ت 536هـ) شيخ الحنابلة بدمشق الذي بنى المدرسة الشريفية أو الحنبلية بالمدينة المذكورة. ووقف عليها الأوقاف. ن: سير النبلاء 20 / 103.

(4) كعصمة الملك زمرد خاتون زوجة بوري بن طغتكين صاحب دمشق. التي بنت المدرسة الخاتونية بالمدينة المذكورة. ن: الملكة الأمة، للأستاذ جواد المرابط 1.

(5) كدار الحديث النورية بدمشق التي كان يديرها الحافظ ابن عساكر (ت 571هـ)، ن: التاريخ السياسي 216.

(6) ومنها ثلاثة بحلب: اثنتان للرجال وواحدة للنساء. بناها جميعًا نور الدين زنكي. ن: التاريخ السياسي والفكري 211 - 212.

العلمية. وكان من ثمار هذه النهضة المباركة الشاملة، أن برَّز في العلوم المختلفة العديد من نوابغ الفكر، والأدب، والمعارف النقلية والعقلية. ومن هؤلاء في الفترة المدروسة على سبيل المثال:

أ ـ في القراءات القرآنية:

ـ عبد اللّه بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي (ت 567هـ). اشتهر في الأدب والنحو، والتفسير، والحديث، والنسب والفرائض، والحساب، وقرأ بالقراءات المختلفة.

ـ أبو العباس أحمد بن عبد اللّه ابن الحطيئة اللخمي الفاسي (ت 560هـ)، ولد بفاس. وتلقى العلم بها، ثم رحل إلى مصر، واستقر بها، وقد عده المؤرخون والفقهاء إمامًا في القراءات السبع.

ب ـ في التفسير:

ـ أبو يونس عبد السلام القزويني المعتزلي (ت 483هـ) فسر القرآن تفسيرًا مطولاً، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبع مجلدات.

ـ جار اللّه أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المعتزلي (ت 538هـ) صاحب كتاب الكشاف، وأساس البلاغة، والفائق، ورؤوس المسائل في الخلاف الفقهي، وغير ذلك.

ـ الكيا الهراسي عماد الدين محمد الطبراني الشافعي (ت 504هـ)، صاحب تفسير أحكام القرآن.

جـ ـ في الحديث:

ـ أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت 510هـ)، وقيل 516هـ، كان متبحرًا في العلم، ألف في الحديث، والتفسير والفقه. من مؤلفاته: شرح السنة في الحديث، والتهذيب في الفقه، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم.

ـ أبو زكرياء يحيى بن عبد الوهاب ابن منده الأصبهاني (ت 511هـ). كان واسع الرواية ثقة، حافظًا، فاضلاً، مكثرًا، صدوقًا، كثير التصانيف.

ـ أبو الطاهر أحمد بن محمد الحافظ السِّلفي الأصبهاني (ت 576هـ). كان حافظًا غزير العلم، شافعي المذهب.

ـ الحافظ تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة اللّه ابن عساكر الدمشقي الشافعي (ت 571هـ). كان عمدة في الحديث، والفقه، وعلم الكلام

الأشعري، والتاريخ، عينه نور الدين زنكي شيخًا لدار الحديث التي بناها بدمشق.

ـ أبو عبد الله الحسين بن عبد الملك الخلال (ت 532هـ)، مسند أصفهان، وشيخ العربية، وبقية السلف، حدث عنه السلفي، والسمعاني، وابن عساكر.

ـ أبو الحسن علي بن أحمد بن منصور ابن قيس الغساني الدمشقي المالكي (ت 530هـ) محدث ابن محدث، لم يكن في زمانه مثله، مقدم في علوم شتى.

د ـ في علم الكلام، والأديان:

ـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني (ت 549هـ) شيخ أهل الكلام والحكمة، صاحب: كتاب الملل والنحل، ونهاية الإقدام في علم الكلام.

ـ أبو عبد الله محمد بن عتيق التميمي القيرواني المعروف بابن كُدّية (ت 512هـ)، العلامة الأصولي، شيخ القراء، المشار إليه في الكلام.

هـ ـ في التاريخ:

ـ أبو سعد أو أبو سعيد عبد الكريم بن محمد التميمي السمعاني (ت 562هـ)، تبحر في الفقه، والحديث، والأنساب، من كتبه: «ذيل تاريخ بغداد»، و«تاريخ مرو»، وكتاب «الأنساب»، وهو أشهر كتبه.

ـ أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر الدمشقي (ت 571هـ) صاحب كتاب «تاريخ دمشق» الذي يقع في ثمانين مجلدًا.

ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت 597هـ) العالم الموسوعي، صاحب كتاب «المنتظم»، وغيره من الكتب العديدة.

ـ العميد أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي المعروف بابن القلانسي (ت 555هـ) صاحب كتاب: «ذيل تاريخ دمشق». ذيل به على تاريخ هلال ابن الحسن الصابي المتوفى سنة (448هـ).

و ـ في اللغة والنحو:

ـ أبو زكرياء يحيى بن علي التبريزي (ت 502هـ) أحد أيمة اللغة والبلاغة في عصره، من مؤلفاته: «شرح ديوان الحماسة»، و«شرح ديوان المتنبي»، و«شرح سقط الزند» لشيخه أبي العلاء المعري، و«شرح المعلقات السبع»، و«شرح المفضليات»، وغير ذلك.

ـ حسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت 502هـ) صاحب «شرح غريب مفردات القرآن»، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة»، وغيرهما.

ـ أحمد بن محمد الميداني النيسابوري (ت 518هـ)، متقن للغة. له: «الأمثال»، و«الأنموذج»، وغيرهما.

ـ موهوب بن أحمد الجواليقي (ت 540هـ). كان إمامًا في فنون الأدب، صنف: أدب الكاتب، وغيره.

ـ ابن الشجري هبة اللّه بن علي (ت 542هـ)، كان أوحد زمانه في علم العربية، من مؤلفاته الكثيرة: الحماسة.

ـ كمال الدين الأنباري عبد الرحمن بن محمد (ت 577هـ)، كان غزير العلم، من مؤلفاته الكثيرة: «الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين»، و«هدية الذاهب في معرفة المذاهب»، و«الجمل في علم الجدل»، وغير ذلك.

ـ ابن الدهان سعيد بن المبارك (ت 569هـ) الذي كان يسمى بسيبويه عصره. له مؤلفات عديدة.

ـ أبو نزار البغدادي ثم الدمشقي (ت 568هـ)، برز في النحو حتى صار أنحى طبقته. كان لا يرضى أن ينادى بغير ملك النحاة الذي لقب نفسه به.

ز ـ في الأدب والشعر والكتابة:

ـ أبو إسماعيل الحسين بن علي مؤيد الدين الأصفهاني المعروف بالطغرائي (ت 513هـ) كان يسمى بالأستاذ لغزارة علمه. له ديوان شعر معروف، ومن شعره قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم.

ـ أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن علي الدمشقي المعروف بابن الخياط (ت 517هـ) شاعر الشام، من كبار الأدباء، نظمه في الذروة، وديوانه معروف.

ـ أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير بن خالد القيسراني (ت 548هـ). برز في الشعر، وأتقن علم الهيأة، والهندسة، وصحب شاعر الشام أبا عبد اللّه بن الخياط. له ديوان شعر، وقف عليه أبو شامة.

ـ أبو الحكم المغربي الأندلسي عبيد اللّه أبو عبد اللّه بن المظفر الباهلي (ت 549هـ) بدمشق كان ذا معرفة بالأدب والفقه والطب والهندسة، وله ديوان شعر يمزج فيه الجد بالسخف، والهزل بالظرف، عمل طبيبًا للسلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي.

ـ أحمد بن منير بن مفلح الطرابلسي (ت 548هـ). كان شيعيًا مغاليًا، فلاقى بسبب ذلك الكثير من الويلات في حياته. له ديوان شعر.

ـ الأمير أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني الشيزري (ت 584هـ) صنف الكثير من الكتب، منها: «الاعتبار»، و«المنازل والديار»، و«لباب الأدب»، و«البديع في نقد الشعر»، و«الشيب والشباب»، وغير ذلك. كما له ديوان شعر كبير.

ـ أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري (ت 515هـ) صاحب المقامات المشهورة.

حـ ـ في الفلسفة:

ـ الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)، صاحب: «تهافت الفلاسفة»، و«إحياء علوم الدين»، و«المستصفى»، و«الوجيز»، وغير ذلك من المؤلفات العديدة المتنوعة.

الحركة الفقهية خاصة:

في هذا العصر الذي عاش فيه المؤلف رحمه اللّه ـ وهو ما بين سنتي 460 و543هـ ـ كان عهد الاجتهاد المطلق، والإبداع التشريعي قد ولى، وصار هَمُّ مقلدة المذاهب بعد تقررها واستقرارها، هو تهذيب رواياتها، وتوثيقها، وتحرير أقوال أيمتها وتوجيهها، والاستدلال لها، والتخريج عليها، وتأصيل أصولها، وبناء فروعها عليها، والتعصب لها، والذود عنها، بالتأليف، والتدريس، والقضاء، والإفتاء وفق قواعدها.

وكانت المذاهب الأربعة ـ على تفاوت بينها في الانتشار ـ كلها موجودة في المشرق وبلاد الشام، وكانت المناظرات بينها في مسائل الخلاف تكاد لا تتوقف، وتعقد في كل المحافل والتجمعات: في المساجد، والمدارس، والطرق، والمنتديات، وفي القصور بين يدي الأمراء، والوزراء والولاة، بل وفي المآتم والحفلات[1].

وقد بلغ من شأن هذه المناظرات، وتعلق الناس بها، وتقديرهم لمجالسها، أن أصبح لا يعد في زمرة أهل العلم من لا يمارسها، وصار لا يقال للرجل: هذا العالم على الحقيقة، وهذا الفحل في العلم، إلا إذا كان من فرسان ميادينها[2]،

---

(1) ن: محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية لمحمد أبي زهرة. جمعية الدراسات الإسلامية 1961.

(2) ن: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد مرتضى الزبيدي=

ولذلك اشتد الإقبال على معرفة مسائل الخلاف التي تثار فيها، وحفظها، وتحصيل ما يلزم للمناظرة فيها بشكل لم يسبق له نظير، حتى إننا وجدنا الفقيه الشافعي عبد الباقي بن يوسف المراغي (ت 492هـ) يقول: «أحفظ أربعة آلاف مسألة في الخلاف، وأحفظ الكلام فيها، ويمكنني أن أناظر في جميعها»[1].

ولم يكن كل من يباشر المناظرة أهلاً لها، ولا ممن يعتبرها مفاوضة لإظهار الحق وتقريره، وتعاونًا وتآزرًا على الوصول إليه والتزامه كما هو الأصل فيها، وإنما كان الكثير ـ لقلة علمه، وشدة تعصبه لمذهبه ـ لا يريد بمناظرته إلا المغالبة أو الوصم في حق الخصم، ولا يقبل فيها غير قول نفسه، حتى وإن تحقق ـ كما قال المؤلف رحمه اللّه ـ «بفهمه، أن الصواب مع خصمه»[2]، وهكذا صارت المناظرة مكابرة، وأصبحت مجالسها ميادين للنزال بين المذاهب، وفرصة للتشهير بها، وتهويل ما قد يظن من ضعف في بعض اجتهاداتها، حتى كاد لا يسلم منها مذهب من لمز العوام، بأنه يحل ببعض اجتهاداته الحرام، فأدرك الناس بذلك من الريبة والاحتيار، ما جعل البعض منهم يتحرج في نسبة نفسه إلى أي مذهب من مذاهب الأيمة العلماء الأخيار. وعن هذه الحالة يعبر الإمام الزمخشري (ت 538هـ) بقوله:

إذا سألوني عن مذهبي لم أبح به ... وأكتمه، كتمانه لي أسلم
فإن حنفيًا قلت، قالوا بأنني ... أبيح الطلا، وهو الشراب المحرم
وإن مالكيًا قلت، قالوا بأنني ... أبيح لهم أكل الكلاب، وهم هم
وإن شافعيًا قلت، قالوا بأنني ... أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن حنبليًا قلت، قالوا بأنني ... ثقيل حلولي، بغيض، مجسم
وإن قلت من أهل الحديث وجز به ... يقولون: تيس، ليس يدري ويفهم
تعجبت من هذا الزمان وأهله ... فما أحد من ألسن الناس يسلم[3]

= 1 / 374. دار الكتب العلمية ـ بيروت. ط1. 1989.

(1) ن: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (ت 597هـ). دائرة المعارف العثمانية. الهند 1357هـ.
ولم يشتد الإقبال على معرفة مسائل الخلاف وحفظها فقط، وإنما على التأليف الواسع فيها أيضًا. حتى كاد لا يوجد فقيه إلا وله مؤلف في الخلاف الفقهي.

(2) ن: مقدمة التهذيب 3 - 4.

(3) ن: تقديم رؤوس المسائل 27، للإمام الزمخشري، تحقيق: عبد اللّه نذير أحمد. دار =

ولم يكن هذا التجني والاعتساف، وعدم الإنصاف، مقتصرًا فقط على مجالس المناظرات، وإنما كان ظاهرًا ومنتشرًا أيضًا في المصنفات في مسائل الخلاف، حتى إنك قلما تجد فيها ـ كما قال الإمام الفندلاوي رحمه اللّه ـ «منصفًا، أو خصمًا بالحق معترفًا»[1].

وكان ترتيب المذاهب الفقهية في المشرق والشام، في العصر المدروس ـ حسب نفوذها واتساعها، وكثرة أتباعها ـ كالآتي:

أولاً المذهب الشافعي، وكان واسع النفوذ والانتشار في هذا العصر بسبب ما لقي من عناية بالغة، ورعاية تامة من قبل أحد أركان الدولة السلجوقية الوزير نظام الملك الحسن بن علي الطوسي (ت 485هـ)، الذي بنى العديد من المدارس الفاخرة ـ كما تقدم ـ، وجعلها خاصة بالمذهب الشافعي أصلاً وفرعًا، واختار للتدريس بها وإلقاء المناظرات فيها كبار فقهاء الشافعية كالشيرازي، وإمام الحرمين، وأضرابهما، وأولاها، وأساتذتها، وطلابها، ومكتباتها، من الرعاية والعناية المادية والمعنوية، ومن التقديم والتكريم ما جعل الكثير يتطلع بلهفة إلى التدريس أو الدراسة بها[2]، فكثر بذلك خريجوها، وانتشروا في البلاد، فقوي بهم المذهب ثم لم تنقطع العناية بهذه المدارس بعد موت نظام الملك، بل تواصلت واستمرت حتى في عهد نور الدين زنكي الحنفي المذهب[3]، وتولى خريجوها المناصب الهامة في أسلاك القضاء والإدارة، الأمر الذي حمل العديد من الفقهاء على الانتقال إلى المذهب الشافعي، وكان منهم جملة وافرة من الحنابلة، نذكر منهم على سبيل المثال:

ـ أبو الفتح أحمد بن علي بن تركان المعروف بالحمامي (ت 518هـ) الذي كان حنبليًا، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وتفقه على أبي بكر الشاشي، والغزالي، فجعله أصحاب الشافعي مدرسًا بالنظامية[4].

= البشائر ـ بيروت. ط1. 1987.

(1) ن: مقدمة التهذيب 4.

(2) ن: التاريخ السياسي والفكري 179 - 186.

(3) حيث واصل العناية بالمدارس النظامية، وبنى مدارس أخرى للمذهب الشافعي في كل من حلب، ودمشق. ن: التاريخ السياسي والفكري 175 - 188.

(4) ن: المنتظم 9 / 93.

ـ وأبو جعفر عمر بن أبي بكر بن عبد اللّه الدباسي (ت 601هـ)، الذي انتقل إلى المذهب الشافعي فعين مشرفًا على المكتبة النظامية[1].

ـ والمبارك بن المبارك الواسطي النحوي المعروف بالوجيه (ت 612هـ)، الذي انتقل إلى مذهب أبي حنيفة، ثم إلى مذهب الشافعي، فعين مدرسًا بنظامية بغداد[2]. فأنشد فيه الشاعر أبو البركات محمد بن أحمد (ت599 هـ) أبياتًا منها:

ومن مبلغ عني الوجيه رسالة ... وإن كان لا تجدي لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تدينا ... ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر ... إلى مالك، فافطن لما أنا قائل

ومن أهم وأشهر فقهاء الشافعية في الفترة المدروسة بالمشرق عامة:

1 ـ أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفيروزآبادي الشيرازي (ت 476هـ) مدرس نظامية بغداد، له من المؤلفات: «التنبيه»، و«المهذب»، و«التبصرة»، و«اللمع»، و«الملخص في الجدل»، و«المعونة في الجدل»، و«النكت في مسائل الخلاف»، وغير ذلك.

2 ـ إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد اللّه الجويني (ت 478هـ)، مدرس نظامية بغداد، ومصنف: «نهاية المطلب في دراية المذهب»، و«البرهان»، و«غياث الخلق»، و«الدرة المضية في الخلاف»، و«الكافية في الجدل»، وغير ذلك من الكتب الهامة.

3 ـ أبو نصر عبد السيد بن محمد المعروف بابن الصباغ (ت 477هـ) مدرس النظامية، ومؤلف كتاب الشامل، وغيره.

4 ـ أبو سعد المتولي، عبد الرحمن بن مأمون النيسابوري (ت 478هـ)، الذي برع في الفقه، والأصول، والخلاف، وكان أحد أصحاب الوجوه في المذهب. له كتاب: «التتمة»، أتم به الإبانة لشيخه أبي القاسم الفوراني.

5 ـ أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد الروياني الطبري (ت 502هـ)، كان حافظًا للمذهب، يقول: لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من قلبي.

---

(1) ن: التاريخ السياسي والفكري 187.
(2) ن: مرآة الزمان ج8. ق2. ص573.

6 ـ حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ) الإمام المشهور، صاحب الوجيز والمستصفى، والمنقذ من الضلال، وغير ذلك من الكتب المتنوعة في شتى العلوم النقلية والعقلية.

7 ـ سيف الدين أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي القفال (ت 507هـ) مدرس النظامية، وصاحب كتاب: «حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء»، و«الشافي في شرح الشامل» لشيخه أبي نصر بن الصباغ.

ومنهم بدمشق خاصة، حيث كان الإمام الفندلاوي رحمه اللّه نذكر:

ـ مفتي الشام جمال الإسلام أبو الحسن علي بن المسلم بن محمد بن علي السلمي (ت 533هـ)، كان ثقة ثبتًا، عالمًا بالمذهب، على فتاويه عمدة أهل الشام، له مصنفات في الفقه، والتفسير، والفرائض، كان من محبي الفندلاوي، وممن يحضرون مجالس ختمه في رمضان.

ـ وأبو الفتح نصر اللّه بن محمد بن عبد القوي المصيصي (ت 542هـ)، شيخ دمشق، ومدرس الزاوية الغربية بعد شيخه الفقيه نصر، إمام مفت، وفقيه أصولي، متكلم، دين، خير، متجنب أبواب السلاطين.

ـ وأبو البركات الخضر بن شبل بن عبد الواحد الحارتي ابن عبد (ت 562هـ). مدرس الغزالية، والمجاهدية، وخطيب دمشق. وقف عليه نور الدين مدرسته التي تلي باب الفرج. شديد الفتاوي، واسع المحفوظ، ثبت. كتب كثيرًا في الفقه والأصول، وتكلم في الخلاف.

ـ وابن بندار، أبو المحاسن، يوسف بن عبد اللّه (ت 563هـ)، شيخ الشافعية، ومدرس النظامية، برع في الفقه، والأصول، والخلاف، والجدل.

ـ وابن الزكي، أبو المعالي محمد بن القاضي أبي الفضل يحيى بن علي القرشي، المعروف أيضًا بابن الصائغ (ت 537هـ). قاضي دمشق. كان نزيهًا، عفيفًا، صلبًا في الحكم، محمودًا، متفوقًا، حسن النظر.

ـ وأبو البيان نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي الأثري الزاهد (ت 551هـ)، شيخ البيانية كان دينًا، تقيًا، محبًا للسنة، والعلم، والأدب، أنشأ له نور الدين بعد موته رباطًا كبيرًا عند درب الحجر.

ـ وأبو الحجاج يوسف بن مكي بن علي الحارتي (ت 556هـ) تولى إمامة جامع دمشق، بعد موت أبي محمد ابن طاووس سنة 536هـ. كان ثقة مستورًا، له كتب كثيرة في الأصول والفروع.

ـ وابن الأكفاني أبو محمد هبة اللّه بن أحمد بن محمد الأنصاري (ت 524هـ) الشيخ الإمام، مفيد الشام، ثقة، ثبت، حافظ، مكثر.

ـ وشرف الدين أبو سعد عبد اللّه بن محمد بن هبة اللّه ابن أبي عصرون (ت 585هـ). مفتي العراق، والشام، مدرس الأتابكية العتيقة. والزاوية الغربية من المسجد الأموي، والمدرسة الغزالية، والمدرسة النورية، أقام له نور الدين مجموعة من المدارس إكرامًا له، وإجلالاً لقدره في دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنبج، وفوض إليه التدريس بها، وتوظيف من يراه أهلاً لتولي مهنة التدريس فيها.

ثانيًا: المذهب الحنفي، وهو مذهب الخلفاء العباسيين، والسلاطين السلجوقيين، وأتابكة دمشق البوريين، ونور الدين زنكي، وكان أكثر أتباعه ينتشرون في خراسان، وفارس والعراق. وكان معظمهم من المعتزلة، وفيهم الماتريدية، ويندُر أن يوجد بينهم من هو على غير هذين المعتقدين «حتى إن القاضي أبا الحسين بن أبي جعفر السمناني (ت 466هـ) عندما اعتنق عقيدة الأشعري ـ وكان حنفيًا علق على ذلك ابن الأثير بقوله: وهذا مما يستطرف أن يكون حنفي أشعريًا»[1].

ولولا أن الشافعية ـ لأشعريتهم ـ كانوا أقدر على مواجهة ومقاومة الفكر الشيعي الباطني، الذي كانت الدولة بحاجة ماسة إلى صده ومنع انتشاره، ولولا بناء نظام الملك المدارس النظامية السابقة الذكر لسد تلك الحاجة، لولا ذلك لكان المذهب الحنفي هو أوسع المذاهب انتشارًا، وأكثرها أتباعًا في المنطقة، وذلك لما سبق ذكره من اعتناق الخلفاء والسلاطين، والأمراء له، وتقليدهم إياه، ولإسناد خطة القضاء، وقاضي القضاء للعديد من أتباعه.

ومن أشهر فقهاء الحنفية وأهمهم في هذا العصر بالمشرق الإسلامي عامة:

1 ـ شمس الأيمة محمد بن أحمد السرخسي (ت 483هـ)، صاحب المبسوط، وأحد رجالات طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها، عن صاحب المذهب، ومن الذين يؤخذ بأقوالهم، وترجيحاتهم عند الأحناف.

2 ـ قاضي القضاة أبو عبد اللّه محمد بن علي الدامغاني (ت 478هـ)، حضر

---

(1) ن: الكامل 8 / 119 - 120، والتاريخ السياسي والفكري 185.

ببغداد مجلس أبي الحسين القدوري، وهو من أكبر أصحاب القاضي أبي الطيب الطبري.

3 ـ أبو منصور علاء الدين السمرقندي محمد بن أحمد (ت 539هـ) صاحب «تحفة الفقهاء وميزان الأصول في نتائج العقول»، و«مختلف الرواية»، و«شرح الجامع الكبير»، وغير ذلك.

4 ـ أبو الفتح علاء الدين محمد بن عبد الحميد الأسمندي السمرقندي (ت 552هـ) صاحب طريقة الخلاف بين الأسلاف، وبذل النظر في الأصول، وغير ذلك.

5 ـ برهان الدين أبو القاسم منصور بن أبي سعد محمد بن أبي نصر أحمد الصاعدي (ت 552هـ) قاضي نيسابور وأحد الأيمة الفقهاء في المذهب.

6 ـ أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني (ت 587هـ) الملقب بملك العلماء، صاحب كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»، الذي شرح به تحفة الفقهاء لشيخه، وأب زوجته، علاء الدين السمرقندي.

7 ـ قاضي القضاة أبو القاسم علي بن نور الهدى أبي طالب محمد بن علي الهاشمي، الزينبي (ت 543هـ) كان غزير الفضل، وافر العقل، له وقار ورزانة وثبات.

8 ـ فخر الدين حسن بن منصور الأوزجندي الفرغاني المعروف بقاضيخان (ت 592هـ).

9 ـ أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الراشدي الفرغاني، المرغيناني (ت 593هـ) صاحب كتاب «الهداية شرح بداية المبتدي».

ومنهم بدمشق خاصة:

ـ أبو الحسن علي بن الحسن البلخي برهان الدين (ت 548هـ)، مدرس «الصادرية» بدمشق، ثم «الحلاوية» سنة 543هـ بحلب بأمر من نور الدين، وعظ، وأقرأ، وناظر في الخلاف، ودرس أيضًا بمسجد الخاتون، وجعلت له دار الأمير طرخان مدرسة، فثارت عليه الحنابلة لأنه نال منهم. أبطل من حلب الأذان بحي على خير العمل.

ـ وبهاء الدين بن عسكر المعروف بابن العقادة (ت 596هـ) شيخ الحنفية بدمشق، وأول من درس بالنورية الكبرى التي بناها نور الدين، وجعلها وقفًا على الحنفية.

ـ وأبو عبد اللّه محمد بن يحيى بن علي القرشي، اليمني الزبيدي (ت 555هـ)، كان حنفيًا سلفيًا، يقول الحق، ولو كان مرًا، لا تأخذه في اللّه لومة لائم، في عقيدته مقال لبعض العلماء.

ثالثًا: المذهب الحنبلي، وكان نفوذه منحصرًا في بغداد[1]، ولم يكن له في غيرها من الانتشار والاتساع، وكثرة الأتباع، مثلما كان للمذهبين السابقين؛ غير أنه مع ذلك كان له وقع مسموع، وصوت مرفوع، وبعض تأثير وقوة في الساحة الشعبية والسياسية، وذلك لما كان للعديد من علمائه في هذا العصر من التفوق، والنبوغ والجرأة، ولما كانوا عليه من الصراع العقدي الدائم مع الأشاعرة من أصحاب المذاهب الأخرى. ولما تبوأه بعضهم من خطة القضاء؛ بل ومنصب الوزارة في دار الخلافة[2].

ومن أهم وأشهر فقهاء هذا المذهب في الفترة المدروسة بالمشرق عامة:

1 ـ الشريف أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى الهاشمي العباسي (ت 470هـ). إمام الحنابلة في عصره بلا منازعة، كان له مجلس للنظر كل يوم اثنين، وكان شديد القول واللسان على أهل البدع، وقع بينه وبين ابن القشيري الشافعي الأشعري فتنة سنة 469هـ. له: رؤوس المسائل، وكتاب في بعض فضائل الإمام أحمد، وترجيح مذهبه.

2 ـ ابن البناء أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد البغدادي (ت 471هـ) له مصنفات كثيرة، كان زاهدًا يعمل ويأكل من كسبه.

3 ـ أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني (ت 510هـ) أحد أيمة المذهب وأعيانه، من أهل الفتوى والمناظرة. له: «الهداية في الفقه»، و«التمهيد في أصول الفقه»، و«الخلاف الكبير المسمى بالانتصار في المسائل الكبار»، و«الخلاف الصغير المسمى برؤوس المسائل، وغير ذلك».

4 ـ أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل (ت 513هـ). أحد الأيمة الأعلام وشيخ الإسلام، مقرئ، فقيه، أصولي، واعظ، متكلم. من مؤلفاته: «الفنون»، مائتا مجلد، و«الفصول في الفقه»، و«كفاية المفتي»، و«الجدل على

---

(1) ن: التاريخ السياسي والفكري 184.

(2) مثل عون الدين أبي المظفر ابن هبيرة (ت 560هـ) الحنبلي الذي وزر للخليفة العباسي المقتفي لأمر اللّه سنة 544هـ ووزر من بعده للمستنجد باللّه. ن: سير النبلاء 20 / 426.

طريقة الفقهاء»، وغير ذلك.

5 ـ أبو الحسن علي بن عبد اللّه بن نصر بن السري الزاغوني (ت 527هـ). أحد أعيان المذهب، من مؤلفاته الكثيرة: «الإقناع»، و«الواضح»، و«الخلاف الكبير»، و«غرر البيان»، وغير ذلك.

6 ـ ابن أبي يعلى الفراء القاضي أبو الحسين محمد بن محمد بن الحسين بن محمد، ابن شيخ المذهب القاضي أبي يعلى (ت 526هـ)، كان عارفًا بالمذهب، متشددًا في السنة، من مصنفاته الكثيرة: «المجموع في الفروع»، و«رؤوس المسائل»، و«طبقات الأصحاب»، و«إيضاح الملة في الرد على الفرق الضالة المضلة»، وغير ذلك.

7 ـ أخوه أبو خازم محمد بن محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء (ت 527هـ) برع في معرفة المذهب، والخلاف، والأصول. من مصنفاته: «التبصرة في الخلاف»، و«رؤوس المسائل»، و«شرح مختصر الخرقي».

8 ـ أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد الدينوري (ت 532هـ) أحد الفقهاء الأعيان، وأيمة أهل المذهب، من مصنفاته: كتاب «التحقيق في مسائل التعليق».

9 ـ الإمام المحدث الحافظ مفيد العراق أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد ابن علي بن عمر السِّلَامي (ت 550هـ) كان شافعيًا أشعريًا، ثم انتقل إلى مذهب الإمام أحمد في الأصول والفروع.

10 ـ الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى ابن هبيرة (ت 560هـ) صاحب كتاب «الإفصاح عن معاني الصحاح»، وغيره.

ومنهم بدمشق خاصة:

ـ شرف الإسلام أبو القاسم عبد الوهاب بن عبد الواحد الأنصاري الشيرازي (ت 536هـ) شيخ الحنابلة بدمشق، المعروف بابن الحنبلي، كان يناظر على قواعد عقائد الحنابلة، جرى بينه وبين إمامنا الفندلاوي الأشعري المعتقد، بحوث وسب. أثنى عليه السلفي، ووثقه. من مؤلفاته: «المنتخب في الفقه»، و«المفردات»، و«البرهان في أصول الدين»، و«رسالة في الرد على الأشعرية»، وغير ذلك.

ـ وأبو الفرج عبد الواحد بن علي بن أحمد الشيرازي الأنصاري (ت 486هـ) شيخ الشام في وقته. كانت له كرامات ظاهرة، ووقعات مع الأشاعرة. نشر

المذهب، وتخرج به الأصحاب، ووعظ، واشتهر أمره. من مؤلفاته: «المبهج»، و«الإيضاح»، و«التبصرة في أصول الدين»، و«مسائل الامتحان»، وغير ذلك.

ـ وأبو يعقوب يوسف بن آدم بن محمد بن آدم المراغي (ت 560هـ) من مشايخ السنة. حدث بدمشق وبغداد، ونصيبين، كان أمارًا بالمعروف، داعيًا إلى الأثر بزعارة، كثير الشغب، مثيرًا للفتن، إذا بلغه أن قاضيًا أشعريًا عقد نكاحًا، فسخ نكاحه، وأفتى بأن الطلاق لا يقع في ذلك النكاح، أجلاه نور الدين زنكي عن دمشق بسبب ما وقع من شجار بينه وبين البلخي الواعظ.

رابعًا: **المذهب المالكي**، وكان أتباعه بالمنطقة في هذا العصر أقل وجودًا، وأضعف نفوذًا، لخروج خطة القضاء منذ وفاة القاضي عبد الوهاب من أيديهم، وعدم ظهور فقهاء نبغاء أقوياء بعد ذلك فيهم، ولذلك فإننا لم نعثر في كتب التراجم إلا على آحاد يعدون على رؤوس الأصابع من علمائهم، وغالبهم من المغرب العربي أو الأندلس. ولولا ما بذله إمامنا الفندلاوي من جهود جبارة لنصرة المذهب بالتأليف فيه، والمناظرة على قواعده وأصوله، وتدريسه والإفتاء به، والذب بأقوى الأدلة عنه. لولا ذلك ـ فيما نقدر ـ لصار نسيًا منسيًا، وخبرًا مطويًا.

ومن أهم ما وقفت عليه من علماء المذهب في الفترة المدروسة بالمشرق والشام:

1 ـ صاحبنا الإمام الشهيد يوسف بن دوناس الفندلاوي المغربي الذي سنعرفه في المبحث الموالي قريبًا.

2 ـ الأشيري أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه الصنهاجي (ت 561هـ) بحلب، من كبار المالكية، إمام في الحديث، ذو معرفة بفقهه ورجاله، له يد باسطة في النحو واللغة، سمع ببغداد أيام الوزير ابن هبيرة الحنبلي، حدث عن القاضي عياض وجماعة، وروى عنه أبو الفتوح بن الحصري، وغيره. من مؤلفاته: كتاب هذب به «الاشتقاق» الذي صنفه المبرد.

3 ـ أبو الحسن علي بن أحمد بن منصور بن محمد بن قُبَيْس الغساني الدمشقي (ت 530هـ)، الفقيه النحوي الزاهد العابد القدوة، مقدم في علوم شتى، محدث ابن محدث، لم يكن في وقته مثله، كان لا يحدث إلا من أصل، مغاليًا في السنة، محبًا لأصحاب الحديث.

4 ـ أبو الحكم الأندلسي عبيد اللّه أو عبد اللّه بن المظفر، بن عبد اللّه بن محمد الباهلي (ت 549هـ) بدمشق. كان طبيبًا، فقيهًا، شاعرًا، أنشأ له السلطان

محمود بن ملكشاه في معسكره بيمارستانًا ينقل على أربعين جملاً، وكان طبيبه. له: ديوان شعر يمزج فيه الجد بالسخف، والهزل بالظرف، وقصيدة طويلة في مدح معين الدين أُنر صاحب دمشق، ووصف المعركة التي دارت بينه وبين الصليبيين سنة 543هـ. يذكر فيها جهاد الإمام الفندلاوي واستشهاده. من أبياتها قوله:

سما لهم معين قد ... أعان الخلق والدينا
وفتيان تخالهم ... لدى الهيجا، شياطينا
فولوا يطلبون المر ... ج من شرقيّ جِسرينا
ولكن غادوا إليا ... سَ، تحت الترب مدفونا
وشيخًا فِندَلاويًّا ... فقيهًا، يعضد الدينا
وفتيانًا تفانوا من ... دِمَشقٍ نحو سبعينا
ومنهم مائتا علج ... وخيلٌ نحو تسعينا
وباقيهم إلى الآنا ... من الموت، يفرونا[1]

* * *

(1) ن: الروضتين 1 / 140. القسم الأول.

المبحث الثاني
حياته

تمهيد:

قبل التطرق إلى الحديث عما توفر لدينا من معلومات عن حياة إمامنا الشهيد الفندلاوي رحمه اللّه، نود أن ننبه على الأمور الآتية:

1 ـ أن جميع من ترجموه[1] ـ حسب علمنا ـ مشارقة إلا ابن خلدون، رغم كونه مغربي الأصل، مالكي المذهب، بالغا درجة الاختيار والترجيح كما سنرى.

ولسنا نملك تفسيرًا نقطع بصحته في هذا الأمر، ويحتمل عندنا أن ذلك ربما وقع بسبب خروجه من المغرب قبل أن يظهر من تفوقه العلمي، ما يشد الانتباه إليه، ويحمل على السعي إلى ترجمته، ثم لما كان بالمشرق حيث برَّز، لم يبلغ المغاربة من خبره إلا نتف يسيرة، لم يروا في الإتيان عليها في مؤلفاتهم كبير فائدة. فأمسكوا عن ذكرها.

ويحتمل أن ذلك قد وقع بسبب ما كان للدولة المرابطية منه أو من أسرته، صرف أنظار معاصريه عنه، وحال دون ترجمتهم له، ثم تابعهم من جاء بعدهم على ذلك، واللّه أعلم.

2 ـ أن جميع من ترجموه لم يذكروا شيئًا عن حياته قبل رحيله إلى الحج وإقامته بالشام، لم يذكروا شيئًا عن أسرته، ومولده، ونشأته، ورحلاته العلمية، وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم. وما ذكروه من خبره في الشام كاد ينحصر في بيان موقفه من الحملة الصليبية الثانية بقيادة أمبراطور ألمانيا كنراد الثالث على دمشق سنة 543هـ، ووقوفه ـ رغم وهنه وشيخوخته ـ في وجهها، واستشهاده فيها، وذكر ما نقل من حاله وقوله في ذلك. وأما ما سوى ذلك، فقد وقعت الإشارة إليه في نبذ يسيرة، ولولا وقوفه الأسر[2] في وجه الحملة المذكورة ـ فيما يبدو لنا ـ لكاد أن لا يبلغنا من خبره شيء.

3 ـ أن جميع من وقفت على كتبهم ممن ترجموه، باستثناء أسامة بن منقذ في

---

(1) سنذكرهم، وكتبهم آخر هذا المبحث إن شاء اللّه تعالى.

(2) سنأتي على ذكره مفصلاً في محله من هذا البحث قريبًا.

«الاعتبار»، وابن القلانسي في: «ذيل تاريخ دمشق»، وأبي شامة في: كتاب «الروضتين»، كان معولهم على ما كتبه عنه تلميذه الحافظ ابن عساكر (ت 571هـ) في كتابه: «تاريخ دمشق»، ولذلك وردت أقوالهم فيه متطابقة أو تكاد. وما قد يرى من اختلاف بينهم أحيانًا، إنما مرده إلى الإطالة، أو الاختصار، أو التنويع في اللفظ، وما انفرد به أسامة، وأبو شامة، وابن القلانسي، قليل لا يتجاوز بضع أسطر. وهو خاص بموقفه من الحملة الصليبية المذكورة[1].

4 ـ أن «تاريخ دمشق» الذي هو مرجع معظم من كتبوا عن الإمام الفندلاوي رحمه اللّه، والذي يحتمل أن ترجمة هذا الإمام توجد مسهبة به بعض الإسهاب، لا يزال مخطوطًا، ويقع في 80 مجلدًا، لا نعلم على وجه اليقين أنها توجد مجموعة في مكتبة ما في العالم.

وقد حاولنا الحصول على الترجمة المذكورة من هذا المخطوط، فاتصلنا بالمكتبة الظاهرية، ومكتبة الأسد بدمشق، وبدار الكتب المصرية بالقاهرة، وبالمكتبة الوطنية بباريس، وبمكتبة ابن يوسف بمراكش، لما كان لنا من علم بوجود عدد لا بأس به من مجلدات المخطوط المذكور بها[2]؛ غير أننا لم نجد في هذه المكتبات مجلدًا واحدًا به ترجمة صاحبنا، لأن أعلى مجلد بها رقمه 31، بينما ترجمة إمامنا توجد في المجلد الأخير، لأن الكتاب مصنف على حروف المعجم.

وقد تفضلت مكتبة الأسد مشكورة فصورت لنا من الظاهرية ترجمة الإمام الفندلاوي من مختصر تاريخ دمشق لأبي شامة الذي يوجد أصله مخطوطًا بالمكتبة الوطنية بباريس، وهي ترجمة لا بأس بها على قصرها لما بها من إضافة لم ترد في غيرها.

وبلغ إلى علمنا أخيرًا أن نسخة كاملة من تاريخ دمشق، لا ينقصها إلا ستة مجلدات من الوسط توجد بمكتبة كارل ماركس، بمدينة لايبزيك بألمانيا الشرقية سابقًا.

وأن المكتبة المذكورة لما تنته بعد من إعداد فهارس محتوياتها، وأنها في طور تهييء نفسها وترتيب أمرها، لفتح أبوابها، وتقديم خدمتها للجمهور، ولعلنا نظفر ـ إن شاء اللّه ـ بعد فتحها بترجمة أكثر توسعًا وغنى لإمامنا الشهيد رحمه اللّه.

---

(1) ن: الاعتبار 117، وذيل تاريخ دمشق 298، وكتاب الروضتين 134, 135, 137, 139.

(2) حيث يوجد منه بدار الكتب مثلاً 37 مجلدًا، وبخزانة ابن يوسف 28 مجلدًا.

5 ـ أن إمامنا الفندلاوي لندرة ما علم من ترجمته ـ كما مر ـ وزهد الناس فيه لذلك، ظل مجهولاً مغمورًا طوال هذه القرون، ولعل هذه المحاولة التعريفية به التي سنقدمها في هذا المبحث أن تكون هي أول ما كتب عنه موسعًا فيما نعلم، ومن شأن المحاولات الأولى ألا تسلم من القصور، لذلك فإننا نبادر إلى الاعتذار مقدمًا عما قد يبدو على المبحث من ضعف تماسك، وقلة توسع، وعدم إحاطة.

المطلب الأول: اسمه ونسبه:

هو شيخ الإسلام حجة الدين أبو الحجاج وأبو يعقوب يوسف بن دوناس[1] بن عيسى الفندلاوي[2] المغربي، يرجع نسبه إلى فندلاوة[3]، قبيلة مغربية بربرية كانت توجد بين صفرو وقرية رباط الخير (أهرمومو)، حيث قبائل بني يازغة الحالية[4]، على نحو 60 كلم من مدينة فاس.

ومن مستوطني هذه القبيلة وجيرانها قديمًا: بنو حجاج[5]، وبنو مومنان[6]، وبنو عسكر[7]، وقد كانت بها قلعة حصينة تعرف بقلعة فندلاوة قامت بأدوار كبيرة

---

(1) في الكامل 11 / 130 ذي ناس وفي البداية والنهاية مج6، 12 / 224: درناس، وفي شذرات الذهب 4 / 136، وفي الزيارات 62: دوباس، وفي صفحة عنوان المخطوط موضوع التحقيق: دقناس، وكل ذلك تصحيف.

(2) هكذا في أكثر مصادر ترجمته، وفي مرآة الزمان 8 / 121، وشذرات الذهب 4 / 436: القندلاوي، وكذا بصفحة عنوان المخطوط، وفي تاريخ ابن خلدون 3 / 184: العندلاوي، وكل ذلك تصحيف أيضًا، والصحيح من عمود نسب إمامنا ما أثبتناه، لأنه هو الذي ذكره تلميذه الحافظ ابن عساكر في تبيين كذب المفتري 173، وتاريخ دمشق، ونقله عنه الكثير ممن جاء بعده كأبي شامة في الروضتين 1 / 134. وابن الأثير في اللباب 2 / 442، واليافعي في مرآة الجنان 3 / 280، والذهبي في تاريخ الإسلام 128 ميكرو فيلم دار الكتب المصرية، وسير أعلام النبلاء 20 / 209، وتذكرة الحفاظ 4 / 1297، والعبر 2 / 465 - 466، وابن منظور في مختصر تاريخ دمشق 28 / 80، وأبي شامة في مختصر تاريخ دمشق مخ باريس لـ 40 - 41.

(3) في تاريخ ابن خلدون: 4 / 17، قندلاوة.

(4) ن: الجذوة 1 / 21، ها: 24.

(5) ن: الجذوة 2 / 423 ها: 536.

(6) ن: الإعلام 4 / 229.

(7) ن: تاريخ ابن خلدون 7 / 279.

في القرون التي تلت فتحها على يد المولى إدريس الأول[1]، قبل أن تتعرض للهدم على يد المرابطين[2].

ويحتمل أن هذه القلعة هي إحدى قلاع مدينة «المنزل» التي كان يسكنها الشريف الحسني سيدي عبد العزيز بن عبد الواحد الذي خوطب هو وأبناؤه، وأحفاده، في ظهائر سلطانية طيلة حكم الدولة السعدية بلقب الفندلاوي، ثم خوطب أحفاد أحفاده زمن الدولة العلوية إلى عهد المولى عبد العزيز ـ بعد أن نسي اسم فندلاوة ـ في ظهائر متتالية بالقلعاوي بدل الفندلاوي[3].

وقد اندثر اسم فندلاوة منذ زمن غير قليل، ولم يبق له من ذكر إلا في الكتب القديمة، وفي قريتين تحملان نفس الاسم إحداهما بقبيلة بني زروال بإقليم تاونات، والثانية بإقليم تطوان.

وقد أنجبت هذه القبيلة مجموعة من فطاحل العلماء، نذكر منهم على سبيل المثال بالإضافة إلى صاحبنا:

ـ أبو عبد اللّه محمد بن علي بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي، المعروف بابن الكتاني، المتكلم الأصولي العالم، الأديب الزاهد الورع، أحد أكابر أئمة فاس والمغرب، له رجز في الأصول، وكتاب في تفسير الأكيال والأوزان نقل عنه بعض شراح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني: وقد توفي رحمه اللّه بفاس سنة 596هـ أو 597هـ[4].

ـ وأبو محمد عبد اللّه بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين، الذي برع في المنطق، والهندسة، والتنجيم، والهيأة، وكان لا يدرك شأوه في الحساب والعدد، ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائقها، وغوامض مسائلها، كما كان له القدم الراسخة في علوم الأدب، والباع الطويل في نظم الشعر.

من سكان مدينة فاس، وأصله من بني حجاج أهل قلعة فندلاوة، خدم يعقوب المنصور الموحدي، وولده الناصر، له أرجوزة مشهورة في الجبر والمقابلة، قرئت

---

(1) ن: تاريخ ابن خلدون 4 / 17، والجذوة 1 / 21 ها 24.

(2) ن: مواقف المغرب دعوة الحق 1970 ع: 3س ص: 57.

(3) توجد هذه الظهائر محفوظة في ملكية السيد علي بن عسو منزه بمدينة المنزل، وهو أحد أحفاد السيد عبد العزيز بن عبد الواحد، الفندلاوي المذكور.

(4) ترجمته في: الجذوة 1 / 220، مع ها: 293، والتكملة 2 / 681، والسلوة 2 / 173، والذيل والتكملة ص 8، ق: 1 / 131 رقم: 125، وروض القرطاس 270.

عليه، وسمعت منه بإشبيلية سنة 587هـ، توفي بمراكش سنة 601هـ، وقيل آخر سنة 600هـ[1].

ـ والإمام الفقيه المفتي عيسى بن معنصر بن إبرهيم بن دوناس المومناني الحسيني الذي كاد أن يبلغ درجة الاجتهاد، وكان علماء جميع الأمصار يعترفون له بالعلم، وحسبك من سعة علمه أن القاضي عياض كان إذا نقل عنه مسألة فقهية، قال: قاله عيسى المومناني فقيه فاس.

سكن مدينة فاس، وأصله من بني مومنان، من حوز فندلاوة، لم أقف على تاريخ وفاته[2].

ـ وابنه الإمام الفقيه المدرس القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى بن معنصر المومناني الشريف الحسيني، كان عالمًا بالفقه وأصوله وفروعه، وبالحديث، مستبحرًا من أهل الرأي والنجدة، مقدمًا في الفتوى، وكان يدعى بالإمام لسعة علومه النقلية والعقلية، توفي بمراكش سنة 639هـ[3].

ـ والفقيه الخطيب بجامع الأندلس، ثم جامع القرويين بفاس يوسف الفندلاوي الشهير بالمكناسي، المتوفى سنة 914هـ[4].

المطلب الثاني: مولده ونشأته:

يترجح ـ لتظافر قرائن قامت عندنا ـ أن ميلاد إمامنا كان بين الخمسين والستين من القرن الخامس الهجري في أواخر سنوات الدولة المغراوية، ومن هذه القرائن:

1 ـ قول سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»[5] نقلاً عن الحافظ ابن عساكر، إن الفندلاوي حين وجوده ببانياس[6] «كان شيخًا كبيرًا»، والوصف بالشيخ الكبير،

---

(1) ترجمته في التكملة 2 / 531، والإعلام 8 / 204 - 205، والجذوة 2 / 423 مع ها: 536, 537, 538، النبوغ 1 / 166.

(2) ترجمته في الجذوة 2 / 500.

(3) ترجمته في الجذوة 1 / 215، والإعلام 4 / 229، والذيل والتكملة س 8، ق 1 / 350 رقم 135.

(4) ترجمته في الجذوة 2 / 552.

(5) 8 / 121.

(6) مدينة جنوب غرب دمشق على بعد مرحلة ونصف منها ن: «القلاع أيام الحروب الصليبية» لقولفغانغ مولر ـ فيز، ترجمة محمد وليد الجلاد، ومراجعة سعيد طيان. دار الفكر دمشق ط2، 1984.

لا نرى أنه يطلق على من سنه دون الستين.

2 ـ أن الفندلاوي بعد انتقاله من بانياس إلى دمشق، دعاه تاج الملوك بوري بن طغتكين، الذي ولي الملك ما بين 522هـ و526هـ فيمن دعا من العلماء إلى إصدار فتوى في الباطنية، فأجاب لذلك[1]، والراجح أن هذه الإجابة كانت سنة 523هـ، لأنها السنة التي قتل فيها الباطنية، ووزيره المزدقاني المتآمر معهم عليه كما تقدم.

3 ـ أن إمامنا قد استشهد سنة 543هـ، أي بعد إصدار الفتوى المذكورة بـ 20 سنة.

وبناء على مجموع هذه القرائن، يكون قد مات رحمه اللّه عن نيف وثمانين سنة، وإذا كان ذلك كذلك، يكون قد ولد في التاريخ الذي رجحناه، واللّه أعلم.

هذا عن تاريخ ميلاده، وأما عن نشأته، وظروف حياته، قبل رحلته إلى الحج واستقراره بالشام، فإن المصادر التي عدنا إليها ـ على كثرتها ـ لم تسعفنا بأية معلومات عن ذلك.

المطلب الثالث: رحلته إلى الحج وإقامته بالشام:

رحل الإمام الفندلاوي رحمه اللّه إلى الحج ـ على الراجح ـ في أوائل العشر الثانية من القرن السادس الهجري، وأثناء عودته اختار المقام بالدولة البورية بالشام، فسكن أولاً مدينة بانياس، مدة، تولى خلالها الخطابة بها، ثم انتقل عنها بعد أن صار أمرها إلى بهرام، داعية الباطنية بالشام سنة 520هـ[2]، انتقل عنها إلى دمشق حيث استوطنها إلى أن مات رحمه اللّه[3].

ولسنا ندري لماذا آثر رحمه اللّه المقام بالشام ـ رغم ما كانت تعرفه المنطقة من تشرذم وتمزق سياسي، وصراع مذهبي وعقدي، وهجوم صليبي متوال، وتخريب باطني لا يتوقف كما تقدم في المبحث السابق ـ لماذا آثر المقام هناك على العودة إلى بلده المغرب الذي كان يعد أعظم دولة إسلامية في ذلك العصر؛ حيث كانت حدوده تمتد من السودان الغربي (السينغال) جنوبًا إلى طليطلة بالأندلس

---

(1) ن: فتوى الفندلاوي 7.

(2) ن: الكامل 8 / 319 - 320.

(3) ن: مختصر تاريخ دمشق مخ باريس لـ 40 - 41، وتاريخ الإسلام 128، ميكروفيلم دار الكتب المصرية، رقم: 10687، ومرآة الزمان 8 / 121، ومعجم البلدان مج 4 / 777.

شمالاً، ومن المحيط الأطلسي غربًا إلى تونس شرقًا[1]، والذي كان موحد المذهب والعقيدة، وينعم بقدر كبير من الاستقرار، ويتمتع الفقهاء فيه من قبل أمراء المرابطين بما لا مزيد عليه من التقديم والتكريم، حتى إنه كان لا يقطع في أمر دون مشورتهم[2].

ولا يبعد عندنا أن يكون ذلك راجعًا إلى أحد أو بعض أو مجموع الاحتمالات الآتية:

الاحتمال الأول: أن يكون ذلك لجفوة كانت بينه وبين المرابطين، بسبب علاقة ما كانت لأسرته بالدولة المغراوية التي أجلي من لم يقتل من أفرادها عن مدينة فاس بعد استيلاء الجيوش المرابطية عليها سنة 462هـ.

الاحتمال الثاني: أن يكون ذلك لمضايقات كان يجدها في بلده، بسبب نزعته الأشعرية، وميله إلى الاستدلال، ومقارنة المذاهب في بحوثه الفقهية، وكلا الأمرين لم يكونا مرضيين في عهد المرابطين، وفي ذلك يقول صاحب «المعجب»: «دان أهل المغرب في عهد المرابطين بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى إلى اختلال في العقائد»[3] ويقول أيضًا: «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين، ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب اللّه، وحديث رسول اللّه ﷺ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعنى بهما كل الاعتناء»[4].

الاحتمال الثالث: أن يكون ذلك لنصرة المذهب المالكي وتقويته ونشره بالشام بعد ما رأى ـ هناك ـ من انحصار ظله، وتقلص نفوذه، وقلة أتباعه، وكثرة التجني عليه من خصومه ـ خاصة وقد كان لإمامنا من التفرد في وفور العلم، وحدة الذكاء وجودة الفهم، والقدرة على إفحام الخصم، ما قد يرى معه أن القيام بهذه المهمة واجب عليه، ومتعين في حقه.

---

(1) ن: تاريخ الإسلام 4 / 115.
(2) ن: المعجب 171، ط1.
(3) ن: المعجب 236 - 237.
(4) ن: المعجب 172 ط1.

الاحتمال الرابع: ـ وهو أقوى هذه الاحتمالات عندي ـ أن يكون ذلك للإسهام في التعبئة والإعداد للنهوض بمهمة الجهاد، من أجل تحرير المسجد الأقصى، الذي أدمى احتلاله من قبل البرابرة الصليبيين قلوب جميع المسلمين، وواقع حال إمامنا يشهد لهذا الاحتمال ويقويه فقد عاش حياته داعيًا إلى اللّه، وساعيًا إلى توحيد كلمة عباد اللّه، على نصرة دين اللّه، وختم هذه الحياة ببذل نفسه في سبيل اللّه، فحصل له بذلك ـ كما قال تلميذه الحافظ ابن عساكر ـ «ما تمنى من بلوغ الشهادة، التي توصله إلى ما يرجو من السعادة»[1] رحمه اللّه وتقبل منه.

ومهما يكن من أمر فإن إمامنا الفندلاوي رحمه اللّه بعد انتقاله إلى دمشق، قد لقي من صاحبها ظهير الدين طغتكين عناية وتكريمًا، ولم يمض عليه إلا قليل بها ـ لسبق شهرته إليها ـ حتى صار من العلماء المبرزين، والفقهاء المرموقين، واختير شيخًا للمالكية، ولقب بشيخ الإسلام، وحجة الدين وتبوأ منصب تدريس المذهب بالزاوية المالكية بالجامع الأموي[2] على قدم المساواة مع فقهاء المذاهب الأخرى، وحدث بالموطأ، وكتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي، وحاضر، وناظر على أصول المالكية، وقواعد عقائد أهل السنة والجماعة على الطريقة الأشعرية[3]، وعقد مجالس التذكير، والوعظ، والدعوة إلى اللّه، والحض على الجهاد في سبيل اللّه، في بيته وخارجه[4].

وقد كان يحضر مجالس تدريسه، وتحديثه، وتذكيره، أكابر العلماء، وجهابذة الطلاب من المالكية، وغيرهم، ومن هؤلاء على سبيل المثال:

ـ مفتي الشام جمال الإسلام أبو الحسن علي بن المسلم الشافعي (ت 533هـ) الذي كان يحضر مجالس ختمه في رمضان[5].

---

(1) ن: مختصر تاريخ دمشق مخ باريس لـ 40 - 41.

(2) وكذا بالمدرسة التي سميت فيما بعد بالصلاحية. ن: الدارس في تاريخ المدارس 2 / 3 - 28.

(3) وقد جرى بينه، وبين شرف الإسلام عبد الوهاب الحنبلي (ت 536هـ) ـ بسبب هذا بحوث وسب، ن: سير النبلاء 20 / 103.

(4) وقد رمى بعض الحنابلة أحد هذه المجالس بحجر، وفيها جمال الإسلام المذكور، ن: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور 28 / 80.

(5) ن: الملكة الأم 28 - 29.

ـ والحافظ أبو القاسم ابن عساكر (ت 571هـ) الذي علق عنه أحاديث يسيرة[1].

ـ وأبو العباس أحمد بن محمد القيرواني الذي ذكر ابن عساكر أنه حدثه، وكتب له بخط يده أنه قال للإمام الفندلاوي حين رآه في منامه بعد موته «واللّه ما نسيتك، وما أنا فيك، إلا كما قال الأول:

فـإذا نطقـت فـأنـت أول منطقـي وإذا سكت، فأنت في إضماري»[2]

وأبو تراب بن قيس، بن حسين البعلبكي الذي كان على اعتقاد الحشوية ومن غلاة الحنابلة، ثم تاب من ذلك على يده، وصار من جملة المحبين له[3].

وكان في دروسه رحمه اللّه حسن المفاكهة، لذيذ المجالسة، حلو المحاضرة، طويل المناظرة، شديد التعصب لمذهب أهل السنة، كريم النفس، مطرحًا للتكلف، قوي القلب، كما ذكر الحافظ ابن عساكر وغيره[4].

المطلب الرابع: مقامه العلمي وصلابته في الحق:

لقد كان الإمام الفندلاوي رحمه اللّه ذا مقام علمي رفيع المستوى، وصلابة في الحق لا تكاد تجارى.

ومن مظاهر مقامه العلمي الرفيع:

أولاً: تقلده لمشيخة المالكية بدمشق، وتمكينه المذهب المالكي من النهوض بها، بعد أن قل نفوذه[5]، وكاد يندرس في زحمة ومضايقة المذاهب الأخرى.

ثانيًا: توليه تدريس المذهب المالكي، وعقده مجالس التحديث والتذكير، والمناظرات بزاوية المالكية بالجامع الأموي إلى جانب شيوخ الشافعية والحنفية والحنابلة.

ثالثًا: تأليفه كتاب: «تهذيب المسالك في نصرة مذهب مالك» في الخلاف العالي، الذي لا يقدم على التأليف فيه عادة، إلا من أحاط بأدلة الأحكام، ومقاصد

---

(1) ن: مختصر تاريخ دمشق لأبي شامة مخ باريس لـ 40 - 41.

(2) ن: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور 28 / 80، ومختصر تاريخ دمشق لأبي شامة، مخ باريس لـ 40 - 41.

(3) ن: نفس المصدرين السابقين.

(4) ن: نفس المصدرين السابقين، وسير النبلاء 20 / 209، ومرآة الزمان 8 / 121.

(5) ن: التاريخ السياسي والفكري 184.

التشريع، وأصول المذاهب وفروعها، وأحكم معرفة مواقع الإجماع، والاختلاف، ومناهج الاستنباط والاستدلال، وتمرس بأساليب المناظرة، والحجاج، وبلغ في كل ذلك مبلغ المجتهدين أو كاد.

رابعًا: وضعه لهذا الكتاب على منهج محكم لم يسبق إليه، يقوم على العدل والإنصاف في مناقشة أرباب الخلاف، وجعله بين أيدي أصحابه نموذجًا متفردًا في البحث الخلافي، يرجعون في المطالعة إليه، ويعولون في مجالس النظر عليه(1).

خامسًا: دعوة تاج الملوك بوري له ـ فيمن دعا من العلماء ـ سنة 523هـ إلى بيان أضاليل الباطنية، وفضح مكايدهم، وإبطال مزاعمهم، وإجابته لذلك بوضع رسالة في الموضوع(2) ـ سنعرفها قريبًا ـ أتى فيها ـ على قصرها ـ بما لا تسعه مطولات الكتب من الحقائق والتوجيهات، في أسلوب لا يزيده الزمن إلا نصاعة وقوة.

سادسًا: استقلاله الفكري، وذلك أنه، وإن كان رحمه الله مالكيًا شيخًا للمالكية، وأشعريًا، ينشد في الأشعرية قول القائل:

الأشعرية قوم قد وفقوا للصواب
لم يخرجوا في اعتقاد عن سنة أو كتاب(3)

فإنه مع ذلك لم يكن مقلدًا محضًا، بل كان يختار ويرجح من الأقوال ـ سواء في المذهب، أو المعتقد ـ ما قوي دليله عنده، ويعرض عما عداه كائنًا من كان قائله، وإن بلغ هذا القول درجة الشهرة، أو قال به أكثر الأصحاب.

من ذلك على سبيل المثال: أنه استظهر أن العود في الظهار هو العزم على الوطء فقط، مع أن الذي في الموطأ وعليه أكثر الأصحاب أن العود هو العزم على الوطء والإمساك معًا(4).

ومن ذلك أنه قال: «إذا تحمل رجل على رجل بدين عليه، فلرب الدين أن يطلب أيهما شاء»(5)، وهو خلاف ما اختاره ابن القاسم، واستظهره ابن

---

(1) ن: مقدمة التهذيب 6.
(2) ن: فتوى الفندلاوي 7.
(3) ن: تبيين كذب المفتري 173.
(4) ن: المنتقى 4 / 49، والتهذيب مع 197.
(5) ن: التهذيب مع 504.

رشد الجد[1].

ومن ذلك أنه يرى أن المصيب من المجتهدين واحد[2]، ولا يقول بأن كل مجتهد مصيب وهو خلاف ما ذهب إليه الأشعري، والقاضي أبو بكر الباقلاني[3]، وابن رشد الجد[4]، والقاضي أبو بكر بن العربي، وجمهور المتكلمين.

ومن ذلك إمساكه عن تأويل ما أطلقه الشرع على الخالق، وعلى المخلوق، وقوله في ذلك: «وكفى في هذا قوله عز وجل: «ليس كمثله شيء» فليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، إلا من جهة موافقة اللفظ اللفظ»[5]. وهذا القول وإن كان موافقًا لما لأبي الحسن الأشعري في «الإبانة»[6] فإنه خلاف ما ذهب إليه جمهور أصحابه من بعده كابن فورك، والباقلاني، والجرجاني، والغزالي، وغيرهم[7] بل إن الأشعري نفسه بعد أن نقل عنه الشهرستاني ميله إلى طريقة السلف من ترك التعرض للتأويل، قال: «وله قول أيضًا في جواز التأويل»[8].

سابعًا: مبالغة العلماء في تحليته والثناء عليه.

لقد حظي إمامنا الفندلاوي من مترجميه بما لا مزيد عليه من الألقاب الفخمة التي تدل على علو مقامه، وجلالة قدره، وواسع علمه وفضله، كما حظي منهم بجميل الثناء وطيب الذكر، وهذه أقوالهم في ذلك:

قال في: «مرآة الجنان»[9]، و«شذرات الذهب»[10]: «كان فقيهًا عالمًا، صالحًا، حلو المجالسة»، وقال في «وفيات الأعيان»: «وكان شيخًا كبيرًا فقيهًا عالمًا زاهدًا، صالحًا...»[11]، وقال في «الكامل»: «وكان شيخًا كبيرًا، فقيهًا،

---

(1) ن: المقدمات 1 / 381 - 382.
(2) فتوى الفندلاوي 31.
(3) ن: شرح التنقيح 438.
(4) ن: المقدمات 2 / 264.
(5) ن: فتوى الفندلاوي 41.
(6) ن: الإبانة 20 - 22.
(7) ن: التاريخ السياسي والفكري 19 - 38.
(8) ن: الملل والنحل 101.
(9) 3 / 280.
(10) 4 / 136.
(11) 2 / 542.

عالمًا»[1]، وقال في «سير أعلام النبلاء»: «كان حسن المفاكهة، حلو المحاضرة شديد التعصب لمذهب أهل السنة، كريمًا، مطرحًا للتكلف، قوي القلب»[2] وقال في «كتاب الزيارات»: «كان طويل المناظرة»، شديد التعصب لأهل السنة»[3]، وقال في «النجوم الزاهرة»: «وكان إمامًا، عالمًا، دينًا، بارعًا، في فنون»[4].

وحلاه النعيمي في «الدارس في تاريخ المدارس»[5] بالشيخ العالم، شيخ الإسلام حجة الدين، وحلاه صاحب «ذيل تاريخ دمشق»[6] وصاحب «كتاب الروضتين»[7] بالفقيه الإمام، وحلاه تلميذه ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري»[8] بالشيخ الفقيه الشهيد. ووصفه ابن كثير في «البداية والنهاية»[9] بالفقيه الكبير، وعده ابن منقذ في «الاعتبار»[10] من خيار المسلمين، وممن قاتل يوم قتل للجنة، لا لرغبة ولا لسمعة شأن الصحابة الكرام رضوان اللّه عليهم، وحلاه الأستاذ جواد المرابط، ناشر رسالته «فتوى الفندلاوي» بـ: «الشهيد الإمام الذي أفنى حياته في الدعوة إلى اللّه والدفاع عن سنة نبيه الكريم ﷺ ثم ختم حياته بالشهادة»[11].

ومن شواهد صلابته في الحق:

أولاً: دخوله على شمس الملوك إسماعيل بن بوري سنة 527هـ، ونصحه إياه ـ على ما علم من بأسه، وشدة اعتداده برأيه ـ بإطلاق سراح أخيه سونج الذي اتهم بالتحريض على اغتياله، وتحذيره من أن يكون ذلك من مكر القرامطة الباطنية المحيطين به، ودعوته إلى التعاون مع نور الدين زنكي عدوه من أجل توحيد الصف

---

(1) 11 / 129.
(2) 20 / 209.
(3) 62 رقم المزارة 52.
(4) 5 / 282.
(5) 2 / 350.
(6) 298.
(7) 134.
(8) 173.
(9) 173 مج6 12 / 240 - 241.
(10) 95, 54.
(11) في رسالة بعث بها إلي جزاه اللّه خيرًا.

الإسلامي وتقويته[1].

ثانيًا: دخوله على زمرد الخاتون والدة شمس الملوك، في ثلة من العلماء والصلحاء، وإقناعها بضرورة إقصاء ابنها عن الملك حماية للبلاد والعباد من مظالمه، وشروره، وغروره[2].

ثالثًا: وقوفه الصلب في وجه الباطنية[3] المخربين، المموهين على العامة بادعاء اختصاص أئمتهم بإدراك أسرار الدين، وبيان بطلان مزاعمهم وكذب دعاويهم، وإعلان موقفه الصريح منهم، بتحذير المسلمين من عاقبة موالاتهم ودعوتهم إلى مقاطعتهم قائلاً: «على المسلم ليسلم له دينه ألا يكاثر أهل البدع، ولا يدانيهم، ولا يجالسهم، ولا يقرب منهم، ولا يعاملهم ببيع أو شراء، ولا يهنئهم في الأعياد، وأوقات السرور، ولا يصلي عليهم إذا ماتوا، ولا يترحم عليهم إذا ذكروا؛ بل يباينهم، ويعاديهم في اللّه عز وجل: معتمدًا بطلان مذهب أهل البدع، محتسبًا بذلك الثواب الجزيل، والأجر الكثير»[4].

فعل هذا رحمه اللّه غير هياب، ولا مبال بما يكون من الباطنية، رغم وصول أياديهم الغادرة الباطشة، وخناجرهم المسمومة القاتلة إلى قلوب الخلفاء، والسلاطين، والوزراء، والقضاة، والعلماء، وأمراء الأجناد، وغيرهم[5] كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

رابعًا: وقوفه في وجه الحشوية من الحنابلة المغالين في التشبيه، وإعلان نكيره عليهم في محاضراته، ومناظراته، رغم اتساع نفوذهم، وما كان يصيبه من لسانهم[6] وأيديهم[7] أحيانًا.

---

(1) الملكة الأم 15 - 18.
(2) نفس المصدر 15 - 62.
(3) انظر تعريفهم، وتفصيل معتقدهم في الملل والنحل 191 - 198.
(4) ن: فتوى الفندلاوي 45 - 46.
(5) ن: سير النبلاء 19 / 561 - 568.
(6) ن: كما حدث له مع شيخهم بدمشق شرف الإسلام عبد الوهاب ابن الحنبلي؛ حيث جرى بينهما بحوث وسبب. ن سير النبلاء 20 / 103.
(7) حيث رمى أحدهم خلقته في الجامع الأموي ليلة الختم من رمضان بحجر، ن: مختصر تاريخ دمشق مخ باريس لـ 40 - 41.

المطلب الخامس: جهاده واستشهاده:

لقد كانت بلاد الشام كلها ـ زمن وجود الإمام الفندلاوي بها ـ تتعرض لهجمات شرسة متتالية من قبل الصليبيين الأوربيين.

وكان من بين هذه الهجمات، زحف ملك الألمان كنراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع في جيش جرار على مدينة دمشق لاحتلالها مدعومين من قبل الكنيسة ونصارى الشام[1].

وقد خرج سكان هذه المدينة للدفاع عن عقيدتهم ووطنهم بقيادة أميرهم، معين الدين أنر مملوك طغتكين وكان فيمن خرج صاحبنا الإمام المجاهد العالم العامل القدوة أبو الحجاج يوسف الفندلاوي وهو يومئذ شيخ طاعن في السن، لا يكاد من شيخوخته يقوى على المشي، فحاول الأمير معين الدين ـ رأفة به ـ أن يثنيه عن عزمه، ويصرفه عن قصده لما رأى معين عليه من أثر المشقة، فقال له: «أيها الشيخ الإمام، ارجع فأنت معذور للشيخوخة»[2]، «ليس لك قوة أنا أكفيك»[3] فأجابه جواب الواثق بوعد اللّه الراغب فيما عنده، قائلاً: «لا أرجع»[4]، «قد بعت واشترى مني فواللّه لا أقلته ولا استقلته»[5]، يريد قول اللّه عز وجل: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

وفي يوم السبت سادس ربيع الأول من سنة 543هـ التقى الجيشان: جيش الصليبيين وجيش المسلمين المجاهدين على نحو نصف فرسخ من دمشق عند النيرب قريب الربوة، فقال الإمام الفندلاوي لصاحبه الزاهد المجاهد عبد الرحمن[6]

---

(1) انظر خبر هذا الزحف مفصلاً في: (الكامل 11 / 129 والبداية والنهاية مج6 12 / 224، وذيل تاريخ دمشق 298، وكتاب الاعتبار 117، وتايخ ابن خلدون 5 / 184، والإعلام والتبيين 76).

(2) ن: (مختصر تايخ دمشق مخ باريس لـ: 40 - 41، ومعجم البلدان مج 4 / 777).

(3) ن: شذرات الذهب 4 / 136.

(4) ن: مختصر تاريخ دمشق مخ باريس لـ: 40 - 41.

(5) ن: الكامل 11 / 130.

(6) انظر بعض آثار هذا الزاهد، وبعض المعلومات عنه في: (سير أعلام النبلاء 20 / 209، وفتوى الفندلاوي 5 - 6).

الحلحولي، «أما هؤلاء الروم؟ قال: بلى، قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم اللّه تعالى»[1]، ثم تقدم إمامنا نحو الماء يمنع منه الأعداء، ويقاتل بصدق واحتساب، فما انسلخ اليوم ـ كما قال تلميذه ابن عساكر ـ «حتى حصل له ما تمنى من بلوغ الشهادة، التي توصله إلى ما يرجو من السعادة[2]، فسقط في ساحة الشرف والكرامة زكيًا طاهرًا مقبلاً غير مدبر، مستبشرًا ببيعه الذي بايع به، رحمه اللّه وتقبل منه، وكثر من أمثاله، فدفن أولاً تحت الربوة على الطريق، ثم نقل إلى مقبرة الشهداء بالباب الصغير وجعل على قبره بلاطة كبيرة كتب فيها اسمه وتاريخ استشهاده[3]، واتخذ ضريحه مزارة يتبرك الدمشقيون بها، ويرجون استجابة الدعاء عندها[4].

وقد كان لهذا الموقف الجهادي الرائع الذي وقفه إمامنا القدوة بقية السلف الصالح، أثره البالغ ووقعه الحسن، فأجمع على الإشادة به كل من ترجموه، كما ترنم به في إباء وشموخ من رآه من الشعراء أمثال أبي الحكم الأندلسي؛ حيث يقول من قصيدة طويلة يصف فيها المعركة:

وقلنا إذ رأيناهم ... لعل اللّه يكفينا
سما لهم معين قد ... أعان الخلق والدينا
وفتيان تخالهم ... لدى الهيجا شياطينا
فولوا يطلبون المر ... ج من شرقي جسرينا
ولكن غادروا إليا ... س تحت الترب مدفونا
وشيخًا فندلاويا ... فقيهًا يعضد الدينا
وفتيانًا تفانوا من ... دمشق نحو سبعينا
ومنهم مائتا علج ... وخيل نحو تسعينا
وباقيهم إلى الآنا ... من القتل يفرونا[5]

---

(1) ن: الاعتبار 117.
(2) مختصر دمشق مخ باريس لـ: 40 - 41.
(3) ن: مختصر تاريخ دمشق مخ باريس لـ: 40 - 41.
(4) ن: الزيارات 62 المزارة ر: 52، وذيل تاريخ دمشق 298 وها: 1.
(5) ن: الروضتين 1 / 140 (القسم الأول).

المطلب السادس: كراماته:

من كراماته رحمه اللّه، ما رواه تلميذه الحافظ ابن عساكر، من أنه «كان ليلة الختم في شهر رمضان، يخطب في حلقته بالجامع، ويدعو بدعاء الختم، وعنده الشيخ أبو الحسن علي بن المسلم فرماهم بعض من كان خارج الحلقة بحجر، فلم يعرف من هو لكثرة من حضر فقال الفندلاوي: اللهم اقطع يديه، فما مضى إلا يسير، حتى أخذ خضير الركابي من حلقة الحنابلة، ووجد في صندوقه مفاتيح كثيرة، قد أعدها لفتح الأبواب للتلصص، فأمر شمس الملوك بقطع يديه، ومات من ذلك»[1].

ومنها قول ابن عساكر أيضًا: «سمعت أبا تراب بن قيس بن حسين البعلبكي يذكر أنه كان يعتقد اعتقاد الحشوية، وأنه كان شديد البغض ليوسف الفندلاوي لما كان يعتمده من الرد عليهم، والتنقص لهم، وأنه خرج إلى الحجاز، وأسر في الطريق، وألقي في جب، وألقي عليه صخرة، وبقي كذلك مدة يلقى إليه ما يأكل، وأنه أحس ليلة بحس، فقال من أنت؟ فقال: ناولني يدك، فناوله يده، فأخرجه من الجب، فلما طلع إذا هو الفندلاوي، فقال: تب مما كنت عليه، فتاب، وصار من جملة المحبين له»[2].

ومنها قوله: «ولقد حدثني أبو العباس أحمد بن محمد القيرواني، وكتبه لي بخطه قال: رأيت الشيخ الإمام حجة الدين قدس اللّه روحه في المنام، جالسًا في مكانه الذي كان يجلس فيه بالجامع، فأتيت إليه، وقبلت يده، فقبل رأسي، وقلت له: يا مولاي الشيخ، واللّه ما نسيتك، وما أنا فيك إلا كما قال الأول:

فإذا نطقت فأنت أول منطقي ... وإذا سكت، فأنت في إضماري

فقال لي: بارك اللّه فيك، ثم قلت له: يا مولاي الشيخ الإمام، أين أنت؟ فقال في جنات عدن على سرر متقابلين[3].

---

(1) ن: مختصر تاريخ دمشق لأبي شامة، مخ باريس، لـ 40 - 41، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور 28 / 80 - 81.

(2) انظر الحاشية السابقة.

(3) ن: مختصر تاريخ دمشق لأبي شامة، مخ باريس لـ 40 - 41، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور 28 / 80 - 81.

المطلب السابع: آثاره:

الذي يبدو من القرائن الكثيرة المستفاد بعضها مما قيل في ترجمة الإمام الفندلاوي، وبعضها من صنيعه فيما علم من آثاره أنه ربما كانت له مؤلفات في علوم شتى لم تصل إلينا. ومن هذه القرائن ما ذكر في ترجمته من أنه كان بارعًا في فنون[1].

غير أن الذي نجا من عوادي الزمن، وأمكن الاطلاع عليه من مؤلفاته إلى اليوم هو كتابان اثنان فقط، وهما لأهميتهما، بحيث لو فرض أنه لم يؤلف في حياته غيرهما لكانا كافيين في الدلالة على علو مقامه ورسوخ قدمه في العلوم الشرعية. ولصح أن يتمثل فيه قول الشاعر:

بغـــاة الطيـــر أكثـــرهـــا فـــراخًـــا وأم النســـــر مقـــــلات نـــــزور

وهذان الكتابان هما:

الكتاب الأول: «تهذيب المسالك في نصرة مذهب مالك على منهج العدل والإنصاف في شرح مسائل الخلاف» الذي قمنا بدراسته وتحقيقه، وهو في طريقه إلى النشر قريبًا إن شاء الله تعالى.

والكتاب الثاني: رسالة نشرها الأستاذ جواد المرابط الدمشقي سنة 1966 بدار الكتاب الجديد بيروت تحت اسم: «فتوى الفندلاوي»، تقع في 60 صفحة، منها 30 هي نص المؤلف، وباقيها هو عبارة عن تقديم لها، وتذييل عليها، قام به الناشر المذكور.

وقد ذكر الناشر في التقديم أن أصل هذه الرسالة مما وصل إلى ملكه مخطوطًا من المرحوم جده السيد يحيى المرابط المغربي، وأن سبب تأليف الإمام الفندلاوي لها هو أن تاج الملوك بوري صاحب دمشق الذي اغتاله القرامطة سنة 526هـ، كان ـ لما رأى من تحريف القرامطة لمبادئ الدين بأفكار ليست منه ـ قد اهتم بهم، ودعا العلماء لكشف أضاليلهم، وبيان أن همهم طلب الدنيا والتصافي على المنكر واستباحة ما لا يباح، فاهتم الفندلاوي رحمه الله بالأمر، وركز على تفهيم الناس وإقناع القرامطة «بأن الشريعة إنما جاءت لمصلحة البشر كافتهم، وأنها جوهر الفكر الإنساني، ونتاج التجارب، وأنها الجامعة، لما تواصى به الناس عن خبرة آمادًا

---

(1) ن: النجوم الزاهرة 5 / 282.

طويلة ـ لما ثبت نفعه وصلاحه، وذلك لأن الناس لا يمكنهم أن يعيشوا دون حفظ للعهد، ودون حكم بالعدل، ودون ما يطمئن قلوب بعضهم نحو بعض ودون التسليم بأمور يعرف وجوبها بالعقل ضرورة، كحماية الضعيف، ونصرة المظلوم، وإنقاذ الغريق، والعطف على اليتيم، وإسعاف المريض، وسد حاجة الفقير. . . »[1].

وكان قصده من هذا محاولة استعادة القرامطة إلى صف الأمة، أو الاتفاق معهم على الأقل على الدفاع المشترك عنها ضد الصليبيين باعتبارهم جزءًا منها، لأنه كان يرى أن القرامطة على ما هم عليه من انحراف، ليس شأنهم كشأن الصليبيين الذين يعتقدون أن من القربى إلى اللّه ذبح من ليس على دينهم والاستيلاء على أملاكه وبلاده، بل وحرقه حيًا.

غير أنه بعد تبديل الصليبيين خطتهم مع القرامطة ونجاحهم في كسبهم إلى جانبهم، انسد كل إمكان للتفاهم مع القرامطة، وهكذا لم يكن من الإمام الفندلاوي بعد أن يئس من إصلاحهم إلا أن حصر اهتمامه في أن يحال دون انضمام أحد من المسلمين إليهم، وأن يسعى إلى استعادة من انضم عن جهل وتغرير إليهم، فكتب رسالته «فتوى الفندلاوي» لذلك[2].

في هذه الرسالة الموجزة المركزة، بين الإمام الفندلاوي في واحد وعشرين وصلاً مترابطة، بعضها يسلم إلى بعض، وفي أسلوب مشرق، ومنطق مقنع، أن الإسلام هو دين اللّه الحق، وأنه يحقق سعادة الإنسان في دنياه وآخرته، ويلبي جميع حاجته المشروعة، وأنه لا سبيل إلى معرفته معرفة حقة إلا من الكتاب والسنة، وأن ما تدعيه الباطنية القرمطية من تأويل نصوص الشرع على غير ما يقتضيه ظاهر لفظها باطل كله، وأن الذي أدى بالمسلمين إلى التخلف والضعف هو تخليهم عن تحكيم شرع اللّه، وتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتباعهم للأهواء والشهوات، وانغماسهم في المآثم والمحرمات، وأنه لا سبيل لهم إلى استعادة عزتهم إلا بتحرير الولاء للّه، والإخلاص له والتوكل عليه، ونصرة من ينصر دينه، واتباع ما جاء به رسول اللّه ﷺ من آداب وسنن وفرائض، وترك ما عدا ذلك مما أحدث أهل البدع والأهواء، ثم ختم ذلك بالدعوة إلى المقاطعة التامة

---

(1) فتوى الفندلاوي 7.
(2) فتوى الفندلاوي 6 - 9.

للقرامطة المبتدعة.

ولبيان أهمية هذه الرسالة، نختم حديثنا عنها بنقل بعض وصول منها هنا:

- وصل 5:

«قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: 7]، فرتب نصره على نصره بإقامة طاعته، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وقد بين سبحانه وتعالى الذين ينصرون دينه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: 41] فمن لم يكن موصوفًا بهذه الصفات الأربع ممن مكنه اللّه تعالى في الأرض، فلا حظ له في نصرة اللّه تعالى، وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38] فخص المؤمنين بدفاعه عنهم، ونصره لهم، وهو سبحانه القوي العزيز، والنصر منه، لذلك من المحال أن تكون الغلبة لأعدائه وأعداء دينه وهم الخونة الذين يخونون اللّه والرسول، ويخونون أماناتهم، ويكفرون بنعم اللّه عليهم ويغمطونها»[1].

- وصل 9:

«... لا يجوز لحاكم أن يحكم إلا بما أنزل اللّه؛ وأن الناس لا يحق لهم أن يأخذوا إلا ما لهم به حق، وألا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وحكم الحاكم وما يأمر به أولياء الأمور من رسوم أو حقوق، ما من شيء منه يجوز أن يخالف شرع اللّه، وأن حكم الحاكم لا يحل حرامًا، ولا يحرم حلالاً، فإذا أبرأ القاضي إنسانًا وهو في الحقيقة مدين لم يبرأ منه عند اللّه، ولم يحل له بذلك حق أخيه وإن عجز عن إثبات دعواه، ثم إن كل حيلة، أو سبيل، أو حكم، أو طول زمن، أو غفلة من صاحب الحق لصغر سنه، أو لعجزه، أو لضعفه، أو لحكم يصدره الحاكم، كل ذلك، لا يجوز أن يكون شيء منه يحول دون الحق وصاحبه، وفي حديث البخاري عن طريق أبي بكرة في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[2].

- وصل 11:

«ولا يحل لأحد أن يقول في آية أو في خبر عن رسول اللّه ﷺ ثابت، هذا

---

(1) فتوى الفندلاوي 23.

(2) فتوى الفندلاوي 27 - 28.

منسوخ، وهذا مخصوص في بعض ما يقتضيه ظاهر لفظه، ولا أن لهذا النص تأويلاً غير مقتضى ظاهر لفظه، كما يدعي الباطنية، وبرهان ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: 4]، وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: 75]، وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]، ومن ادعى تأخير الوجوب، مدة ما، فقد أسقط وجوب طاعة اللّه، ووجوب ما أوجب عز وجل من طاعة رسوله ﷺ في تلك المدة، وهذا خلاف لأمر اللّه عز وجل. وكل هذه الأقوال القرمطية مؤدية إلى إبطال الإسلام، بل هي الغاية منها»[1].

المطلب الثامن: مصادر ترجمته:

إن المصادر التي ترجمت الفندلاوي رحمه اللّه، وأمكن الوقوف عليها والاستفادة منها هي:

1 ـ «الإعلام والتبيين»، أحمد بن علي الحريري من رجال القرن 10هـ، 76.

2 ـ «البداية والنهاية»، للحافظ ابن كثير (ت 774هـ)، مج6 ج 12 / 240 - 241.

3 ـ «تاريخ الإسلام»، للحافظ الذهبي (ت 748هـ)، ص: 128 في مكروفيلم دار الكتب المصرية رقم 10687.

4 ـ «تاريخ ابن خلدون»، لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ)، 5 / 184.

5 ـ «تذكرة الحفاظ»، للحافظ الذهبي (ت 748هـ)، 4 / 1294.

6 ـ «تاريخ المدرسة المالكية بالمشرق حتى نهاية العصر الوسيط» (رسالة دكتوراه بالفرنسية)، أحمد باكير، ص: 215.

7 ـ «تبيين كذب المفتري»، الحافظ ابن عساكر (ت 571هـ)، ص: 173.

8 ـ «الدارس في تاريخ المدارس»، عبد القادر النعيمي الدمشقي (ت 927هـ)، 2 / 3، 28، 192، 350.

9 ـ «ذيل تاريخ دمشق»، أبو يعلى حمزة ابن القلانسي (ت 555هـ)، ص: 298.

---

(1) فتوى الفندلاوي 29 - 30.

10 ـ «سير أعلام النبلاء»، للحافظ الذهبي (ت 748هـ)، 20 / 103، 209.

11 ـ «شذرات الذهب»، أبو الفلاح عبد الحق بن العماد الحنبلي (ت 1089هـ)، 4 / 136.

12 ـ «طبقات الشافعية الكبرى»، لتاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت 771هـ)، 3 / 52، 53.

13 ـ «العبر في خبر من غبر»، للحافظ الذهبي (ت 748هـ)، 2 / 465، 466.

14 ـ «فتوى الفندلاوي وقصتها»، نشر: جواد المرابط، ص: 5، 13.

15 ـ «الكامل في التاريخ»، عز الدين ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، 11 / 129.

16 ـ كتاب «الزيارات»، القاضي محمود العدوي (ت 1032هـ)، ص: 62 المزادة رقم 52.

17 ـ كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين»، شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة، ص: 134، 140.

18 ـ كتاب «الاعتبار»، أبو المظفر أسامة ابن منقذ (ت 584هـ)، ص: 117.

19 ـ كتاب «اللباب»، عز الدين ابن الأثير (ت 630هـ)، 2 / 442.

20 ـ «مختصر تاريخ دمشق» مخ باريس، شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة، 40، 41.

21 ـ «مختصر تاريخ دمشق»، ابن منظور: محمد بن مكرم (ت 711هـ)، 28 / 80.

22 ـ «مرآة الجنان»، أبو محمد عبد اللّه اليافعي (ت 768هـ)، 3 / 280.

23 ـ «مرآة الزمان»، سبط ابن الجوزي يوسف بن قزاوغلي (ت 654هـ)، 8 / 121.

24 ـ «معجم البلدان»، ياقوت بن عبد اللّه الحموي، 4 / 777، 778.

25 ـ «معلمة الفقه المالكي»، عبد العزيز بن عبد اللّه، ص: 70.

26 ـ «مواقف المغرب ضد الحملات الصليبية» (مقال بدعوة الحق)، الأستاذ محمد المنوني، ع3، س13 مارس 1970 ص: 51.

27 ـ «مكتبة الزاوية الحمزية، صفحة من تاريخها» (مقال بمجلة تطوان)، الأستاذ المنوني، ع9 س1963 ص: 97، 177.

28 ـ «الملكة الأم» (كتاب مرقون)، الأستاذ جواد المرابط، ص: 15، 18، 51، 62.

29 ـ «النجوم الزاهرة»، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت 874هـ)، 5 / 282.

30 ـ «وفيات الأعيان»، ابن خلكان أبو العباس أحمد بن محمد (ت 681هـ)، 2 / 452.

* * *